دورية علمية سنوية محكَّمة

رئيس مجلس الإدارة
أ. د. أحمد عبد الله زايد

المشرف العام
د. محمد سليمان

رئيس التحرير
د. مدحت عيسى

هيئة التحرير
د. حسين سليمان
ليلى خوجة

مراجعة اللغة الإنجليزية
وجدان حسين

فريق عمل إدارة النشر

الإشراف الفني
ومراجعة التنسيق
مروة عادل

التدقيق اللغوي
د. محمد حسن
دينا عيسوي
آلاء شلتوت

معالجة النصوص
سماح الحداد

المتابعة الفنية
جيهان أبو النجا

التصميم الجرافيكي
آمال عزت

دورية
علوم المخطوط

حولية تراثيَّةٌ محكَّمة مطبوعةٌ (لها موقعٌ إلكتروني) تصدر عن مركز المخطوطات بمكتبة الإسكندرية، تختص بنشر ما يتَّصل بعلوم المخطوطات، والدراسات والترجمات التراثية، والتحقيقات، بالإضافة إلى التعقُّبات والنقود.

الهيئة الاستشارية

الأستاذ الدكتور إبراهيم شبوح (تونس)

الأستاذ الدكتور أحمد شوقي بنبين (المغرب)

الأستاذ الدكتور أيمن فؤاد سيد (مصر)

الأستاذ الدكتور بشار عواد معروف (العراق/ الأردن)

الأستاذ الدكتور بيتر بورمان (ألمانيا)

الأستاذ الدكتور عبد الستار الحلوجي (مصر)

الدكتور فيرنر شفارتس (ألمانيا)

الأستاذ الدكتور ماهر عبد القادر (مصر)

الأستاذ الدكتور يحيى بن جنيد (السعودية)

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

علوم المخطوط

دورية علمية سنوية محكَّمة

العدد الخامس
٢٠٢٢

مركز المخطوطات
Manuscripts Center

مكتبة الإسكندرية بيانات الفهرسة- أثناء - النشر (فان)

علوم المخطوط. – ع5 (2022)- . – الإسكندرية، مصر : مكتبة الإسكندرية، مركز المخطوطات، 2022.

مجلدات ؛ سم.

سنوي

ردمد 2636–3283

«دورية علمية سنوية محكمة»

1. المخطوطات-- دوريات. أ- مكتبة الإسكندرية. مركز المخطوطات.

ديوي –011.31 2020591848848

ISSN 2636–3283

رقم الإيداع: 24367/ 2022

© مكتبة الإسكندرية، ٢٠٢٢.

الاستغلال التجاري

يحظر إنتاج نسخ متعددة من المواد الواردة في هذه الدورية، كلها أو جزء منها، بغرض التوزيع أو الاستغلال التجاري، إلا بموجب إذن كتابي من مكتبة الإسكندرية. وللحصول على إذن لإعادة إنتاج المواد الواردة في هذه الدورية، يُرجى الاتصال بمكتبة الإسكندرية، ص. ب. ١٣٨، الشاطبي ٢١٥٢٦، الإسكندرية، مصر.

البريد الإلكتروني: secretariat@bibalex.org

طُبِع بمصر

قواعد النشر

- ترحب الدورية بنشر البحوث الجيدة والجديدة في الحقول الآتية: الكوديكولوجيا، دراسات في التراث العربي الإسلامي، تحقيقات، ترجمات لنصوص تراثية أو لتحقيقات، تعقُّبات ونقد للتحقيقات والدراسات التراثية.
- يجب أن يتسم البحث بالأصالة والابتكار والمنهجية، وأن يكون البحث غير منشور من قبلُ بأيّ صورةٍ من صور النشر، وغيرَ مستلٍّ من كتابٍ منشور أو رسالة جامعية (ماجستير، دكتوراه).
- ألا يزيد عدد كلمات البحث على ١٠ آلاف كلمة، ولا يقل عن ٥٠٠٠ كلمة (للبحوث، والدراسات، والنصوص المحققة)، ولا تقل عن ٢٠٠٠ كلمة (للنقود، والمراجعات، وعرض الكتب، والترجمات).
- يُصدَّر كل بحث بملخص لا يزيد عن ١٥٠ كلمة، باللغتين العربية والإنجليزية.
- يقدَّم البحث مكتوبًا إلكترونيًّا، عبر البريد الإلكتروني للمجلَّة، مع سيرةٍ ذاتيَّة معبِّرة عن صاحبه. وتوضع الهوامش والإحالات في أسفل الصفحة إلكترونيًّا، وتُفصل بخط عن (المتن). ويكون تسلسل أرقام الهوامش متتاليًا متسلسلًا في البحث كله. وتُثبت المصادر والمراجع في آخر البحث، ويراعى في ثبت المصادر والمراجع - وكذلك في الهامش السفلي للصفحات - أن يكتب اسم المصدر أو المرجع أولًا، فاسم المؤلف، يليه اسم المحقِّق أو المراجِع أو المترجِم في حال وجوده، ثم دار النشر.. إلخ.
- التحكيم سريّ، ومُعَدٌّ على أنموذجٍ يخضع للمعايير الأكاديمية، وقرار إجازة نشر البحث أو رفض نشره قرارٌ نهائيّ. وفي حال الإجازة مع التعديل يلتزم الباحث بإجراء التعديلات المطلوبة - في مدة محددة - إذا كان قرار هيئة التحكيم بإجازة نشر البحث مشروطًا بذلك. أما في حال الرفض فإن هيئة التحرير تحتفظ بحقها في عدم إبداء الأسباب، واستثناءً يجوز لهيئة التحرير أن تزوِّد الباحث بالملحوظات والمقترحات التي يمكن أن يفيد منها في إعادة النظر في بحثه.

- تلتزم الدورية بإخطار الباحث بنتيجة صلاحية بحثه للنشر، ولهيئة التحرير إجراء أي تعديلات شكلية تراها مناسبة لطبيعة الدورية.
- المواد المنشورة في الدورية لا تعبر بالضرورة عن مركز المخطوطات أو مكتبة الإسكندرية، ويعد كاتب البحث مسؤولًا عمَّا ورد في النص الذي قدَّمه للنشر.

المراسلات:

توجه جميع المراسلات عبر البريد الإلكتروني الخاص بهيئة التحرير:
manuscripts.center@bibalex.org أو layla.khoga@bibalex.org

الفهرس

تصدير ٩

تقديم ١١

افتتاحية العدد ١٣

دراسات التحقيق والفهرسة

رسالة العاشق إلى المعشوق في شرح كلمات الصوفي غير مخلوق
د. خالد محمد عبده ١٧

قطعة جديدة من مخطوط «التبيان في علم البيان» لابن الزملكاني (ت ٦٥١هـ): وصف وتقديم وتعليق
د. عبد الجليل شوقي ٤٧

دراسات خطوط المخطوطات وتطورها

دراسة في مسار الكتابة العربية بخطي الكوفي والنسخ من خلال مخطوطات القرنين الثالث والرابع الهجريين
د. محمد حسن جمعة ٨١

صناعة المخطوط وصيانته

دراسة تحليلية لتقنيات ومظاهر تلف مخطوط قرآني ورقي يرجع للقرن الثاني عشر هجريًّا - تقريبًا
فريق بحث ١٣١

بحوث مترجمة

طب النساء والولادة من اليونان إلى ابن سينا
ماكس مايرهوف، ترجمة: د. محمد علي الكردي ١٦٩

تصدير

يمثل التراث العربي المخطوط أحد الكنوز المتبقية والشاهدة على عظمة إنتاج العرب والمسلمين للمعرفة والعلم. ولكن بقاء جزء كبير من ذلك التراث مجهولًا، جعل من الضروري أن نسلط عليه الضوء، وعلى إسهامه في تاريخ الفكر الإنساني. وفي الواقع تعمل دورية «علوم المخطوط» التي تصدر عن مركز المخطوطات بمكتبة الإسكندرية على الاهتمام بنشر الدراسات الرصينة في كل نواحي التراث العربي الإسلامي المخطوط. وفي هذا العدد الخامس للدورية، عمل القائمون على المجلة على اختيار مجموعة من الأبحاث المتخصصة في جوانب تراثية متخصصة تفيد الباحثين في كل أنحاء العالم، وترشدهم إلى تطور الفكر الحضاري والعلمي في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية.

وإلى جانب النشر الأكاديمي المتمثل في هذه الدورية، يعمل مركز المخطوطات على أن يصنع لنفسه مكانة مميزة من بين المراكز العالمية التي تهتم بالتوعية بالجوانب التراثية والحضارية. كما يعمل المركز من خلال باحثيه على الاهتمام بفهرسة وتوثيق المخطوطات العربية، ودراسة وترجمة كل ما يفيد الباحثين في معرفة الجوانب المشرقة في تاريخ العرب والمسلمين.

أ. د. أحمد عبد الله زايد

مدير مكتبة الإسكندرية
ورئيس مجلس إدارة الدورية

تقديم

لا تزال كثير من الرؤى التي وضعت لدراسة التراث الإسلامي تعاني من المجهولية وعدم الوضوح. ولهذا أجد لزامًا علينا أن نعمل على نشر الجوانب المختلفة والحقيقية للتراث العربي الإسلامي، خاصةً صورته المخطوطة، وهي الصورة الأصلية التي كُتب عليها ذلك الإرث المعرفي الكبير، والتي تبيِّن التطور الحقيقي للفكر العربي الإسلامي، من الناحية العقائدية والفقهية والعلمية.

ويقوم الباحثون في مركز المخطوطات التابع لقطاع التواصل الثقافي بمكتبة الإسكندرية بجهد كبير للمحافظة على رصيد المخطوطات التي تمتلكها المكتبة، إلى جانب اهتمامهم الكبير بإقامة أنشطة أكاديمية رصينة لبيان إسهام التراث المخطوط في تشكيل الوعي الحقيقي والصحيح لتاريخ العرب والمسلمين في العصر الحالي.

وأكرر أن دورية «علوم المخطوط» في عددها الخامس لا تزال مُحافظة على سَمتها العلمي، وعلى دراساتها المتنوعة في جوانب التراث العربي المخطوط.

د. محمد سليمان

رئيس قطاع التواصل الثقافي
والمشرف العام على الدورية

افتتاحية العدد

يضم هذا العدد من دورية «علوم المخطوط» مجموعة من البحوث الرصينة التي تدور في فلك الدراسات التراثية، ففي باب النصوص المحققة، يتحفنا الدكتور خالد محمد عبده بتحقيق علمي لـ«رسالة العاشق إلى المعشوق في شرح كلمات الصوفي غير مخلوق»، وتعتني هذه المقالة برسالة العاشق إلى المعشوق في شرح مقولة الصوفي غير مخلوق، تلك المقولة التي حظيت باهتمام من أعلام التصوف الفارسي، ووجدت قبولًا في الأوساط الصوفية على مدار قرنين. وتأتي أهمية هذه الرسالة من كونها كاشفة عن أثر من آثار المدرسة الكُبراوية، فقد تابع فيها نجم الدين داية شيخه مجد الدين البغدادي واستفاد منه، وحاول أن يطور بعض أفكاره التي دوّنها في كتابه «تحفة البررة في المسائل العشرة».

وفي البحث المعنون بـ«قطعة جديدة من مخطوط «التبيان في علم البيان» لابن الزملكاني (ت ٦٥١هـ): وصف وتقديم وتعليق»، للدكتور عبد الجليل شوقي، يقدم الباحث أقدم قطعة جديدة من مخطوط «التبيان في علم البيان» لعبد الواحد ابن الزملكاني، لم يتم اعتمادها من قبل، كُتبت بالغرب الإسلامي بمدينة ألمرية الأندلسية سنة ٨٥٧هـ؛ خلافًا لكل النسخ المعتمدة سابقًا في تحقيق سنة ١٩٦٤م، واصفًا إياها من جهة، ومقدِّمًا تعليقات حول جهود التحقيق التي قام بها كلٌّ من الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي من جهة أخرى.

أما البحث المعنون بـ«دراسة في مسار الكتابة العربية بخطي الكوفي والنسخ من خلال مخطوطات القرنين الثالث والرابع الهجريين»، للدكتور محمد حسن جمعة، فيحاول الباحث تتبع مسار الخطوط العربية من خلال محورَيْن رئيسيَّيْن، وهما الإشارات التاريخية من جهة، والمخطوطات المادية التي وصلتنا من جهة أخرى. وقد اختص البحث بدراسة خطَّي الكوفي والنسخ، لوجود علاقات مادية وتاريخية تجمع بينهما من جهة، ولكونهما من أهم خطوط الحضارة العربية والإسلامية من جهة أخرى.

وفي الورقة المعنونة بـ«دراسة تحليلية لتقنيات ومظاهر تلف مخطوط قرآني ورقي يرجع للقرن الثاني عشر هجريًّا - تقريبًا»، يحاول مجموعة باحثين (فريق عمل) تحديد طبيعة الأضرار التي تصيب أوراق المخطوط وكيفية التعامل معها، وقد استعانت هذه الدراسة بالعديد من أجهزة الفحص والتحليل لفحص أهم مظاهر التلف السطحية التي لحقت به، لدراسة مورفولوجيا السطح، وللتعرف على نوع الفطريات التي أصابت المخطوط، وللتعرف على نوع الوسيط المستخدم للأحبار.

وفي قسم الترجمة نورد نصًّا مهمًّا من نصوص المستشرق ماكس مايرهوف، بعنوان: «طب النساء والولادة من اليونان إلى ابن سينا»، ترجمة الدكتور محمد علي الكردي.

وانتهاءً، فإن فريق العمل في تحرير الدورية يعمل دومًا على ضمان التنوع فيما ينشر بين دفتي كل عدد، في محاولة لسد النقص الذي تعاني منه المكتبة العربية في البحوث التراثية ذات الصلة بالتراث المخطوط.

د. مدحت عيسى
مدير مركز المخطوطات
ورئيس تحرير الدورية

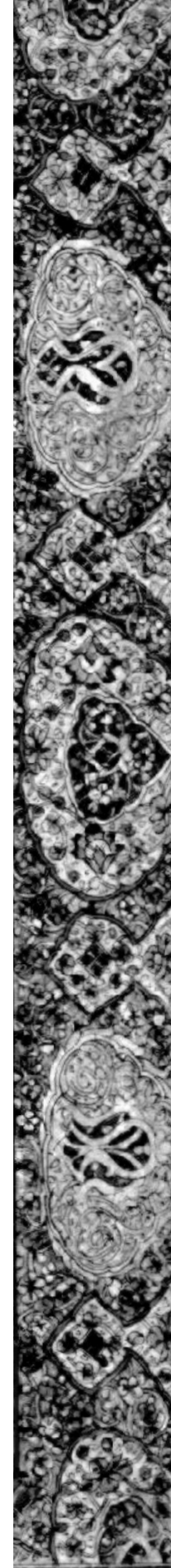

بحوث مترجمة

طب النساء والولادة من اليونان إلى ابن سينا

ماكس مايرهوف

ترجمة: د. محمد علي الكردي(*)

(الجزء الأول)

لاحظ زميلي جواندس في دراسة سابقة له، نشرها بالقاهرة في عام ١٩٣٤م تحت عنوان: «نبذة عن طب النساء والولادة عند المصريين واليونان»(**)، أنه لم تتم بعدُ دراسة طب النساء في الحقبة العربية الإسلامية بعمق، إذ لا يزال الجزء الأعظم من الوثائق الهائلة الخاصة بهذه الفترة قابعًا في صورة مخطوطات عربية وفارسية في مكتبات الشرق والغرب. وليس من شك في أن القيام بهذا العمل على أحسن وجه يتطلب العديد من جهود الأطباء المستشرقين. وسوف نتبين فيما بعد أن عدد النصوص المنشورة منها حتى اليوم جدّ قليل، وأن عدد ما تمت ترجمته إلى اللغات الأوروبية غير معبِّر تمامًا.

نحن نخاطر إذن بمباشرة هذا الموضوع على طريقة الرواد، أي باقتفاء أهم النصوص المنشورة في هذا الصدد، ألا وهو كتاب «القانون في الطب» للطبيب الفارسي العربي الشهير ابن سينا، وهو النص الذي نُشر في مصر وفارس والهند باللغة العربية وفقًا للطبعة الأصلية Edition Princes المنشورة بروما عام ١٥٩٣م. وصحيح أن هذا النص قد تُرجم إلى اللاتينية في القرن الثالث عشر؛

(*) أستاذ بقسم اللغة الفرنسية، ووكيل الدراسات العليا سابقًا بكلية الآداب – جامعة الإسكندرية.

(**) Joannidès, *Esquisse de la gynécologie et de l'obstétrique chez les Égyptiens et les Grecs*, Cairo, 1934.

كما طُبع بهذه اللغة أكثر من مرة بين القرن الخامس عشر والقرن الثامن عشر. غير أن هذه الترجمات كانت بعيدة كل البعد عن الصواب، وأحيانًا غير مفهومة على الإطلاق. ومن ثم، كان لزامًا علينا، حتى نُكوّن تصورًا محددًا لفكر هذا الطبيب الإسلامي العظيم، أن نَرجع إلى النص العربي الأصلي لمؤلّفه الكبير، وذلك بقدر ما نجد به مصنفةً ومقننةً موسوعة المعارف اليونانية بعد أن أُضيفت إليها المعارف العربية. على هذا النحو، سوف نعثر لدى ابن سينا، بجانب النظريات الفيزيو - باثولوجية للمدارس الطبية اليونانية القديمة على ثمرة تجارب وخبرة أجيال من أطباء وقابلات العصور الإسلامية. ولقد بدا لنا أنه من الأهمية بمكان أن نفحص في هذا الكتاب، فصلًا بعد فصل، عملية تتابع النظريات القديمة مع توضيحها بواسطة ما تجمَّع لدينا من معطيات الحقب التالية. لقد استطاع واحد من كبار عباقرة العصور قاطبة أن يجمع ذلك كله بقدر كبير من التركيز في إطار نسق يفرض منطقه؛ وإن كان هذا النسق لا يمكنه، من غير شك، أن يصمد أمام العلم الحديث. إلا أنه يبقى لزامًا علينا أن نتتبع، خلال ردح من الزمن، مسيرة تاريخ الطب التي لم تكن دومًا إلا سلسلة من الأخطاء.

١- نظرة إلى الخلف: طب النساء عند اليونان وانتقاله إلى العرب

يمكننا أن نكتفي هنا بتلخيص أحدث الكتب وأفضلها توثيقًا من بين كل ما صدر في السنوات الأخيرة، ألا وهو كتاب «تاريخ طب النساء في العصر القديم» للأستاذ بول ديبجن من برلين[١]؛ إذ إننا نجد به، من بين ما يتضمنه، إحصاءً منهجيًّا لكل معارف أطباء اليونان فيما يخص الحياة الاجتماعية والصحية للمرأة في إطار الحياة القديمة بعامة.

وكان الدكتور جوانيدس قد قدم في بحثه سابق الذكر تصورًا عامًّا عن نظريات طب النساء لدى اليونان منذ إبقراط حتى سورانوس[٢] وجالينوس (القرن الثاني الميلادي). ولقد أشار إلى فقدان كتب مدرسة الإسكندرية، وضياع نتاج هيروفيلوس[٣] العظيم في مجال التشريح في القرن الثالث قبل الميلاد، والمعروف عنه أنه قد ألَّف كتابًا بعنوان «فن التوليد» *Maiotikón*، ونتاج معاصره الكبير إراسستراتوس[٤] الذي ألّف أيضًا كتابًا في طب النساء.

ولقد اقتفى كثير من التلاميذ خطى أساتذتهم؛ إذ حفظ لنا سورانوس في مؤلفاته عن طب النساء مقتطفات من أعمالهم. كما حلَّ محل باثولوجيا الأخلاط المأثورة عن مدرسة الإسكندرية ضرب آخر من الباثولوجيا المادية مثَّلتها، على الأخص، المدرسة الطبية المنهجية (Méthodique) التي تأسست وترسخت في روما منذ بداية القرن الأول الميلادي. ولقد تخرج سورانوس الإفسي في هذه المدرسة، وهو يُعد أشهر ممثل لعلم الطب النسائي في العهد القديم. فقد عاش، بعد أن أتم دراسته بالإسكندرية في روما إبان حكم الإمبراطورين تراجان وأدريانوس، ونحن ندين له

(١) P. Diepgen, *Die Frauenheilkunde der Alten Welt*; dans Handbuch der Gynäkologie von W. Stoeckel. 3e éd., vol. XII. 1. München, 1937.

(٢) عاش سورانوس الإفسي في عصر الإمبراطورين تراجان وأدريانوس، وكان رئيسًا للمدرسة المنهجية. وفي أعماله الشهيرة مبحثه عن «أمراض النساء». (المترجم)

(٣) هيروفيلوس السكندري (٣٣١–٢٥٠ ق.م) وهو يعد، مع إراسستراتوس، من أهم الأطباء المعنيين بالتشريح. ويُنسب إليه تشريح العين والكبد والبنكرياس والجهاز الهضمي، وتحديد وظيفة القلب في عملية النبض. (المترجم)

(٤) إراسستراتوس من كيو (٣١٠–٢٥٠ ق.م) طبيب إكلينيكي ذو باع كبير في علم التشريح. وهو يُعد، مع هيروفيلوس، من مؤسسي مدرسة الطب بالإسكندرية في عهد البطالمة. (المترجم)

بعملين نمتلك أشهرهما، وهو مبحث «طب النساء» *Gynaikeia*. أما العمل الآخر، وهو موجز لفن التوليد من أجل القابلات، فلم نعثر إلا على ترجمة لاتينية لجزء منه ندين بها لشخص يدعى موسكيون Muscion[٥]. ولقد تمت ترجمة هذه النسخة إلى اليونانية، مرة ثانية، خلال العصر البيزنطي. وكانت هذه الأعمال الأخيرة تزدان برسوم توضيحية تظهر أوضاع الطفل في الرحم وفقًا للتقاليد البيزنطية.

كما تخرج في مدرسة يونانية أخرى، تعرف بالمدرسة التنفسية (Pneumatique)، التي كان يرى روادها في ظاهرة التنفس سببًا للحياة، وفي اضطرابها علة للمرض، المتخصص البارز فيلومينوس (القرن الثالث الميلادي) الذي احتفظ لنا الطبيبان الهللينستيان أوريباز وأيثيوس[٦] بمقتطفات من طبه للنساء. ولقد ترك لنا جالينوس العظيم (١٣١-٢٠١م) أشهر القدماء من الأطباء بعد إبقراط من بين العديد من أعماله، ملخصًا في تشريح الرحم وملخصين آخرين عن تكوين الجنين وعن الوضع في الشهر السابع. كما تحدث كذلك جالينوس عن أمراض النساء في كثير من أعماله الكبرى عن الباثولوجيا. ولقد لاحظنا، كما هي القاعدة العامة لدى كل أطباء العصر القديم، تأثره الشديد بالفلسفة فيما يخص الأسس النظرية لأفكاره، كما نقع غالبًا في أعماله على أثر نظريات أفلاطون وأرسطو والرواقيين. ويجب علينا ألا ننسى أيضًا أن الطب الشعبي كان له نصيبه في تشكيل الفكر الطبي لهذه العصور؛ وهذا ما سوف نجده، على وجه خاص، في الأعمال الموسوعية الكبرى: موسوعة كلسوس Celse في الطب[٧]، وموسوعة بلينيوس Pline[٨] في التاريخ الطبيعي، مع بداية العصر المسيحي.

(٥) موسكيون: طبيب يوناني ترجم كتب سورانوس من القرن الثاني الميلادي وذكره سورانوس في كتابه «فن التوليد». (المترجم)

(٦) أوريباز: طبيب يوناني من القرن الرابع الميلادي (٣٢٥-٣٩٥م) قام بنشر موسوعات طبية تضم حوالي سبعين كتابًا معظمها مختارات من أعمال جالينوس في الطب والتشريح والفيزيولوجيا. أيثيوس Aetius: من أميدا ببلاد ما بين النهرين، وهو فيزيائي بيزنطي ومؤرخ للطب من بدايات القرن السادس الميلادي. (المترجم)

(٧) أولوس كورنيليوس كلسوس (٢٥ ق.م-٥٠م): موسوعي روماني لم يتبقَّ من أعماله إلا مبحثه في الطب *De Medicina* الذي يعد أفضل مصدر للتعرف على الطب في الإسكندرية القديمة. (المترجم)

(٨) بلينيوس (٢٣-٧٩م): عالم طبيعيات وكاتب لاتيني، مات في حادث انفجار بركان الفيزوف عام ٧٩م. له موسوعة ضخمة في التاريخ الطبيعي تشمل ٣٧ كتابًا.

لقد عرف الطب بعامة، والطب النسائي بخاصة، مرحلة من الركود منذ القرن الرابع الميلادي، إذ إن الغرب، الذي خرَّبته الغزوات الهمجية، سرعان ما فقد صلته بالتراث اليوناني الذي لم يظل متماسكًا إلا في قلب الإمبراطورية البيزنطية. ومع ذلك، فإن أعمال كبار الأطباء لم تَسْلَم هي الأخرى من الأفول بعد أن تم اختصارها وإعدادها، فيما تبقت من ظلال الإسكندرية، بغرض الاستخدام الميسر للممارسين. وحينما استولى العرب على الأراضي الآسيوية والإفريقية من الإمبراطورية البيزنطية وعلى بلاد الفرس الساسانيين (٦٣٤-٦٤٢م) كان انشغالهم الأول متصلًا بتنظيم هذه الإمبراطورية الشاسعة التي صاروا سادة لها. وكان الطب وقتئذٍ في أيدي مجموعة من العلماء المسيحيين الذين يتحدثون اللغة الآرامية المستحدثة أي السريانية، والذين كانوا قد ترجموا المؤلفات الطبية اليونانية، كما كانوا يعالجون المرضى وفقًا للنظام الطبي الكلاسيكي.

وفي غضون القرن الثامن الميلادي، بعد نقل عاصمة الدولة الإسلامية من دمشق إلى بغداد، بدأ خلفاء بني العباس يهتمون بالعلوم فكلَّفوا علماءً من السريان بترجمة الأعمال الفلسفية والطبية والعلمية ترجمة منهجية، الأمر الذي استغرق طوال القرن التاسع الميلادي. وكان رائد هذا العمل الخليفة المأمون الذي أنشأ في بغداد بيت الحكمة، وقام باقتناء العديد من المخطوطات اليونانية التي تمت ترجمتها، فيما بعد، إلى السريانية والعربية. ويعد العراقي المسيحي حنين بن إسحاق (٨٠٩-٨٧٣م) من أشهر علماء هذه الحقبة. فلقد أنجز بمفرده ليس عددًا هائلًا من الترجمات فحسب، وإنما درّب كذلك العديد من التلاميذ الذين استكملوا مهمته بعد أن عملوا تحت إمرته في مقتبل حياته. لقد ترجم منفردًا إلى السريانية والعربية مجموعة إبقراط وما يزيد على مائة وثلاثين كتابًا لجالينوس، وكذلك التصنيفات التي جمعها أورِيباز وبول الإجيني[٩]؛ آخر تلاميذ المدرسة اليونانية بالإسكندرية. لقد هطلت هذه الثروة من المترجمات على الأرض القاحلة للعلم العربي كالغيث، وسرعان ما بزغ الأطباء الكبار ومعظمهم من أصول فارسية. لقد طبّق هؤلاء الأطباء العلم الجديد مستفيدين بما وفَّره لهم على مستوى النظرية والممارسة. كما كانوا، بالإضافة إلى ما يمتلكونه من ثروة في مجال الملاحظات العملية، يستخدمون معارف أطباء الهند

(٩) بول الإجيني: طبيب يوناني من القرن السابع الميلادي (٦٢٥-٦٩٥م) درس الطب بالإسكندرية. وكان العرب يبجلونه وأطلقوا عليه لقب «المولِّد» نظرًا لموهبته الفائقة في مجال الولادة. (المترجم)

الذين كانوا يُستدعون من حين إلى آخر إلى قصور الخلفاء. هذا بجانب ما أفادوه من العقاقير الآسيوية المتعددة والمجهولة عند بني اليونان، وذلك بغية إثراء مخزونهم من المعلومات الطبية.

لقد انتقل الطب في القرن العاشر، بعد أن كان حتى القرن التاسع في حوزة المسيحيين، إلى المسلمين الذين سرعان ما قاموا بتأليف الموسوعات الطبية الكبرى التي وصل إلينا الكثير منها. ونذكر بدايةً كتاب «الحاوي في الطب» الذي ألفه محمد بن زكريا الرازي حوالي سنة تسعمائة ميلادية، وهو موسوعة علاجية ضخمة تقع في أربع وعشرين جزءًا، وما زال الكثير من هذه الأجزاء موجودًا باللغة العربية بمكتبة الإسكوريال بالقرب من مدريد. ولقد تُرجم الكتاب *Continens Medicinae* كله إلى اللاتينية حوالي عام ١٢٨٠م، وطُبع في برسكيا بإيطاليا عام ١٤٨٦م. كما ألف الرازي أيضًا، مبحثًا كاملًا في الطب، هو «الكتاب المنصوري» الذي يقع في عشرة أجزاء، والذي كان قد أهداه إلى المنصور أمير خراسان. ولقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية، كما استُخدم أساسًا للتعليم حتى منتصف القرن السابع عشر.

ويأتي بعد ذلك «الكتاب الملكي» *Liber Regius* لعليّ بن العباس الطبيب الفارسي بمستشفى بغداد في القرن العاشر. وهذا الكتاب محفوظ بكامله في نسخته العربية (طبعة القاهرة لعام ١٢٩١هـ/ ١٨٧٥م)، وإن كانت توجد له ترجمة باللاتينية *Tegaleis Dispositio* طُبعت لأول مرة في البندقية عام ١٤٩٢م. ولقد تُرجم الجزء الخاص بالتشريح من هذه الموسوعة الطبية الهامة، ونُشر مصحوبًا بالنص العربي من قِبل دي كوننج[١٠]. ومن الملاحظ أن وصف الأعضاء الجنسية للمرأة وفيزيولوجيا الجنين اللذين يشكلان خاتمة هذا الجزء، ويشغلان ما لا يقل عن أربع وأربعين صفحة، كانا بالغي التفاصيل. ونحن نجد في هذا الجزء مجمل المعارف اليونانية، بالإضافة إلى الإسهام العربي الكبير، وكذلك بعض التصويرات الفلكية عن تأثير الكواكب على تكوين الطفل خلال الشهور التسعة الأولى في رحم الأم. لذلك نحن نفضِّل تتبُّع طب النساء عند ابن سينا نظرًا لإيجازه وبُعْده أكثر من غيره عن الخيال.

(١٠) P. de Koning, *Trois traités d'anatomie arabe*, Leyde, 1903, p. 91-431.

إلا أنه يجدر بنا، في البداية، الإشارة إلى الأخطاء الثلاثة الكبرى لدى أطباء اليونان في مجال التشريح والفيزيولوجيا، وهي الأخطاء نفسها التي انتقلت إلى الطب العربي. وأول هذه الأخطاء، الاعتقاد بالشكل المزدوج القرن للرحم، وسبب هذا الخطأ هو المماثلة مع الحيوان، نظرًا لتحريم الديانات كلها التشريح خلال العصور القديمة والوسطى. والخطأ الثاني هو الوجود الافتراضي لزوائد (Cotylédons) أو أغشية مخاطية حول الرحم تعمل على تغذية الطفل. والخطأ الثالث هو فكرة رحلة الرحم (Migration) في جسم المرأة. ولعل هذا التصور الأخير يرجع إلى بعض المعتقدات الشعبية؛ وليس من المستبعد أن يكون مصدره الدين لدى قدماء المصريين. ونجد، كذلك، هذه الفكرة عند أفلاطون الذي كان يعتقد أن الرحم أشبه بـ «حيوان نَهِم إلى التناسل»، وأنه، من ثم، يقوم برحلة في الجسم إذا لم يحقق غايته المقدَّرة له، وأنه يسبب، على هذا النحو، الأمراض ومن بينها الهستريا. ولقد كان إبقراط يؤمن أيضًا بهذه الفكرة، وإن كانت مدرسة الإسكندرية قد استطاعت، بما امتلكته من معارف أكثر دقة وتقدمًا بالحقائق التشريحية، أن تزعزع هذه النظرية الغريبة، ولكنها، مع ذلك، لم تقضِ عليها تمامًا.

٢- نبذة عن حياة ابن سينا

يُعد أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا ظاهرة ثقافية نادرًا ما نجد لها نظيرًا بين علماء الحضارة الإسلامية. وقد وُلد سنة ٩٨٠م بقرية من بلاد ما وراء النهر Transoxiane بآسيا الوسطى. لذلك يعتبره الأتراك، منذ فترة قريبة، واحدًا منهم(١١). وكانت لغته الأم الفارسية، وإن كان يكتب، خاصةً، باللغة العربية. ونحن ننقل من سيرته الذاتية(١٢) المقتطفات التالية التي يدل على نبوغه المبكر والشاسع: «إن أبي كان رجلًا من أهل بلخ، وانتقل منها إلى بخارى في أيام نوح ابن منصور(١٣) واشتغل بالتصرف، وتولى العمل في أثناء أيامه بقرية يقال لها خرمثين من ضياع بخارى... وبقربها قرية يقال لها أفشنة، وتزوج أبي منها بوالدتي وقطن بها وسكن، ووُلدت منها بها. ثم ولدتْ أخي، ثم انتقلنا إلى بخارى. وأحضرتْ معلم القرآن ومعلم الأدب، وأكملتُ العشر من العمر وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب حتى كان يقضي مني العجب». ويضيف ابن سينا أن أباه وأخاه قد اعتنقا مذهب الإسماعيليين الذين كانوا يحكمون مصر (الفاطميين) ولكنه لم يتبعهما في ذلك. ويكمل قائلًا: «وأخذ [أبي] يوجهني إلى رجل كان يبيع البقل، ويقوم بحساب الهند حتى أتعلمه منه. ثم جاء إلى بخارى أبو عبد الله النائلي(١٤) وكان يُدعى المتفلسف، وأنزله أبي دارنا رجاء تعلمي منه. وقبل قدومه كنت أشتغل بالفقه والتردد فيه إلى إسماعيل الزاهد... ثم ابتدأت بكتاب «إيساغوجي» على النائلي». ثم يحكي لنا ابن سينا، بعد ذلك كيف فاق معلمه وأحرجه بأسئلته: «ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسي، وأطالع الشروح حتى أحكمت علم المنطق.

(١١) لقد نشر معهد تاريخ تركيا، بمناسبة السنوية التاسعة لوفاة ابن سينا، مجلدًا ضخمًا من الأبحاث القيمة باللغات التركية والفرنسية والعربية عن حياة وأعمال العالم الكبير (عن الفيلسوف والطبيب التركي الرئيس ابن سينا.. إسطنبول ١٩٣٧). وتحتوي هذه الطبعة على مراجع مهمة.

(١٢) توجد هذه السيرة في المؤلَّف الكبير عن تاريخ الأطباء العرب «عيون الأنباء» لابن أبي أصيبعة، المتوفى في دمشق سنة ٢٧٠م، الجزء الثاني: ٢-٤. ولقد أملاها ابن سينا على تلميذه الجوزجاني.

[تقع هذه السيرة في صفحات ١-٤ من «عيون الأنباء»، منشورات محمد علي بيضون - دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ١٩٩٨م. (المترجم)].

(١٣) حاكم بلاد ما وراء النهر (٩٧٦-٩٩٧م).

(١٤) يكتبه المستشرق: «الناتلي». (المترجم)

وكذلك كتاب إقليدس، فقرأت من أوله خمسة أشكال أو ستة عليه، ثم توليت بنفسي حل بقية الكتاب بأسره. ثم انتقلت إلى «المجسطي» لبطلميوس»[١٥].

ويقول ابن سينا إنه تعلم الأشكال الهندسية بهذا الكتاب الأخير، وشرحها لأستاذه النائلي الذي ارتحل بعد ذلك إلى بخارى. ويضيف: «ثم رغبت في علم الطب، وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه؛ وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة. فلا جرم أني برزت فيه في أقل مدة حتى بدأ فضلاء الطب يقرأون عليّ علم الطب. وتعهدت المرضى، فانفتح عليّ من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف [ما لا يوجد في الكتب]»[١٦].

وأنا مع ذلك أختلف إلى الفقه..، وأنا في هذا الوقت من أبناء ست عشرة سنة. ثم توفرت على العلم والقراءة سنة ونصفًا، فأعدت قراءة المنطق، وجميع أجزاء الفلسفة... وكنت أرجع بالليل إلى داري وأضع السراج بين يدي، وأشتغل بالقراءة والكتابة. فمهما غلبني النوم أو شعرت بضعف، عدلت إلى شرب قدح من الشراب ريثما تعود إليّ قوتي. ثم أرجع إلى القراءة ومهما أخذني أدنى نوم أحلم بتلك المسائل بأعيانها، حتى إن كثيرًا من المسائل اتضح لي وجوهها في المنام. وكذلك حتى استحكم معي جميع العلوم، ووقفت عليها بحسب الإمكان الإنساني. وكل ما علمته في ذلك الوقت فهو كما علمته الآن لم أزدد فيه إلى اليوم، حتى أحكمت على المنطق والطبيعي والرياضي، ثم عدت إلى الإلهي، وقرأت كتاب «ما بعد الطبيعة» لأرسطو»[١٧]. ثم يضيف ابن سينا كيف أنه لم يستطع فهم هذا الكتاب بالرغم من أنه قرأه أربعين مرة حتى «صار له محفوظًا»، إلى أن وقع بالصدفة على كتاب مفيد، هو «كتاب أبي نصر الفارابي في أغراض كتاب ما بعد الطبيعة»، الذي يُعد صاحبه أول فيلسوف أرسطي شهير في العصر الإسلامي، وحينما استشاره سلطان بخارى نوح بن منصور في مرضه، انتهز ابن سينا الفرصة وطلب منه الدخول إلى مكتبته، حيث استطاع الاطلاع على ما بها من كتب نادرة ونفيسة أثْرَت معارفه في مجال العلوم والآداب ثراءً جمًّا. وفي سن الثامنة عشرة من عمره استكمل ابن سينا دراساته وتملك ناصية العديد من العلوم. ولقد

(١٥) **عيون الأنباء**، بيروت – لبنان، ١٩٩٨م: ٤٠١.
(١٦) عبارة توضيحية للمستشرق.
(١٧) **عيون الأنباء**: ٤٠٢.

أفاده ذلك في تحرير أول كتاب له، وهو كتاب جامع لكل العلوم، طلبه منه صديق له[١٨]، وفي سن الواحدة والعشرين صنّف من أجل صديق آخر[١٩] كتابًا في الفقه والتفسير (الحاصل والمحصول)، وهو يقع في عشرين مجلدًا، وكذلك صنّف مبحثًا في الأخلاق (كتاب البر والإثم)، ثم فَقَد ابن سينا، بعد ذلك، والده، وغادر بخارى في رحلة طويلة عبر بلاد ما وراء النهر وشرق فارس وجنوب شرق بحر قزوين Hyrcanie، قاصدًا خدمة الأمير قابوس؛ أحد كبار حماة العلماء. بيد أن هذا الأخير فقد عرشه عام ١٠١٢م، فاضطر ابن سينا إلى مواصلة ترحاله إلى أن مرض مرضًا شديدًا بدهستان في بلاد فارس فرجع إلى جرجان.

عند هذا الحد ينتهي الجزء الخاص بالسيرة الذاتية للشيخ الرئيس، إلا أن تلميذه المخلص الجوزجاني أكمل سيرة حياته المضطربة. لقد بدأ ابن سينا في جرجان تأليف أهم أعماله، كما شرع في إلقاء عدد من دروسه. ونخص بالذكر هنا الكتاب الأول من «القانون في الطب»، الذي سوف نستخلص منه الجزء الخاص بتشريح الأعضاء التناسلية. لقد انتقل ابن سينا، بعد ذلك، إلى ميديا Médie وطبرستان (جنوب بحر قزوين). وبالرغم من هذه الرحلات، فإن الرجل حافظ على فيض إنتاجه المدهش الذي ما زالت ثماره محفوظة حتى اليوم في المكتبات في صورة مخطوطات عربية متعددة. ثم نراه يذهب، بعد ذلك، إلى همدان (إلى الغرب من بلاد فارس) حيث يعالج السلطان شمس الدولة، ويصاحبه في إحدى حملاته؛ كما يصبح وزيرًا له. ولقد اضطر إلى الاختباء إثر تمرد بعض الجند إلى أن استطاع السلطان إقرار الأمن والنظام. إلا أن ابن سينا يفقد، بعد وفاة هذا الأخير حظوته لدى خَلَفه الجديد، ويُزجّ به في السجن إلى أن يتمكن من الفرار إلى أصفهان، حيث يُحسن غريم السلطان الجديد استقباله. وبالرغم من كل هذه الفترات العصيبة، استطاع ابن سينا أن ينجز أهم أعماله الفلسفية، وهو «كتاب الشفاء»، الذي يضم ثلاثة أجزاء: الإلهيات والطبيعيات والرياضيات. وفيه أظهر قدرته على تفسير الفكر اليوناني بدقة ووضوح. ولقد أتم في أصفهان تحرير هذا الكتاب الأخير، كما قام بتصنيف كتب أخرى في المنطق والهندسة والحساب والموسيقى. وعند تكليفه ببعض الملاحظات في مجال الأرصاد، صحب سلطان أصفهان إلى هَمَدَان، حيث أُصيب

(١٨) هو أبو الحسين العروضي، المرجع السابق: ٤٠٣. (المترجم)
(١٩) هو أبو بكر البرقي، المرجع نفسه: ٤٠٣. (المترجم)

ببعض الاضطرابات المعوية (ربما الدوسنتريا) التي أودت بحياته عام ١٠٣٧م، وهو في سن السابعة والخمسين. وما زال قبر هذا المفكر العظيم قائمًا في هَمَدَان، حيث يُجلّه كل أطباء الشرق. على هذا النحو، تنتهي حياة هذا الرجل الفذ وصاحب الموهبة الخارقة. ولقد أطلق عليه معاصروه لقب الشيخ الرئيس، وهو لقب فخري تُرجم فيما بعد، إلى اللاتينية بعبارة *Princeps medicorum*.

إن ما يهمنا هنا هو إنتاج ابن سينا الغزير في كتابه «القانون في الطب»، الذي أتمه خلال إقامته بمدينة الرَّيّ في بلاد فارس. وتنقسم هذه الموسوعة الطبية الضخمة إلى خمسة أجزاء تشمل الموضوعات العامة والمواد الطبية والأمراض الخاصة، والأمراض المتصلة بمختلف الأعضاء، والأدوية والعقاقير. وسرعان ما ترجم هذا الكتاب، الذي يُعد من أوائل الكتب المطبوعة بعد اختراع الطباعة، إلى اللاتينية والعبرية. وأول طبعاته اللاتينية السابقة على المطبعة، ليست مؤرخة، أما أول طبعة عبرية له فتحمل تاريخ سنة ١٤٩١م. وأول طبعة عربية قامت بها مطبعة الميدتشي Medici بروما، وقد تمت في عام ١٥٩٣م، إلا أنها مكتظة بالأخطاء. أما الطبعات الحديثة الثلاث للنسخة العربية، فهي طبعة القاهرة (بولاق ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م)، وطبعة طهران (١٢٨٤-١٢٩٤هـ/ ١٨٦٨-١٨٧٧م)، وطبعة لكنو بالهند (١٣٣٣هـ/ ١٩٠٥م). ولقد استخدمنا طبعة القاهرة لأنها الأفضل[٢٠]، وإن كانت تحتاج إلى المراجعة من بعض الدارسين للعربية ومن بعض الأطباء الذين على دراية بالطب القديم وكتاب القانون، كما عرضناه في المقدمة، من أجل الضبط والتنظيم المنهجي لكل المعارف الطبية اليونانية والعربية المحصَّلة حتى عصر المؤلف.

إن تشريح وفيزيولوجيا طب النساء اللذين سوف يشغلاننا في البداية يقعان عند ابن سينا في القسم (الفن) العشرين من الكتاب الثالث لكتاب القانون في طبعة القاهرة (المجلد الثاني، ص٥٥٥ وما يليها)، وهما يمثلان أولى المقالات الأربع لهذا القسم[٢١]، وهذا الجزء مقسم إلى فصول لا تحمل أرقامًا.

(٢٠) لقد اعتمدنا على النسخة التالية المحققة للمطابقة، وهي «القانون في الطب» للشيخ الرئيس أبي علي الحسيني بن علي ابن سينا. تحقيق الدكتور إدوار القشي، وتقديم الدكتور علي زيعور، الناشر مؤسسة عز الدين بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م. (المترجم)

(٢١) في الواقع، إننا نقع هنا على التباس من قِبل المستشرق، فالفن العشرون يشتمل على مقالتين مستقلتين خاصتين بأعضاء التناسل، ولم يشر إليهما الباحث قط في دراسته. أما المقالات الأربع، التي يعتمد عليها في بحثه عن ابن سينا، فتشكل مادة الفن الحادي والعشرين. (المترجم)

٣- طب النساء لابن سينا

تشريح وفيزيولوجيا الأعضاء الجنسية وفقًا لابن سينا

سوف نتابع في كل ما نعرضه تقريبًا ترجمة دي كوننج باستثناء بعض التعديلات التي يُمليها النص العربي. ونحن نلاحظ، بداية، أن ابن سينا يبدأ بمقارنة غريبة بين عضو التناسل عند الرجل وعضو المرأة، إذ يجد بينهما نوعًا من التوازي مفاده أن المرأة صورة غير مكتملة للرجل، ولعل هذا التصور يكون قد وصل إليه عن طريق أرسطو(٢٢). ويبدأ ابن سينا على النحو التالي:

فصل في تشريح الرحم

«نقول إن آلة التوليد التي للإناث هي الرحم، وهي في أصل الخلقة مشاكلة لآلة التوليد التي للذكران، وهي الذكر وما معه، ولكن إحداهما تامة متوجهة إلى الخارج، والأخرى ناقصة محتبسة في الباطن، فكأنها مقلوب آلة الذكران، وكأن الصفن صفاق الرحم، وكأن القضيب عنق الرحم والبيضتان للنساء كما للرجال، لكنهما في الرجال كبيرتان بارزتان متطاولتان إلى استدارة، وفي النساء صغيرتان مستديرتان إلى شدة تفرطح، باطنتان في الفرج، موضوعتان في جنبيه في كل جانب من قعره واحدة، متمايزتان يختص بكل واحدة منهما غشاء لا يجمعهما كليس واحد، وغشاء كل واحدة منهما عصبي. وكما أن للرجال أوعية للمنيّ بين البيضتين وبين المستفرغ من أصل القضيب، كذلك للنساء أوعية المنيّ بين الخصيتين وبين المقذف (المني النسائي) إلى داخل الرحم، لكن الذي للرجال يبتدئ من البيضة، ويرتفع إلى فوق، ويندس في النقرة التي تنحط منها علاقة البيضة محررة موثقة، ثم ينثني هابطًا متعرجًا مثوربًا ذا التفافات يتم فيها بينهما نضج المنيّ، حتى يعود ويفضي إلى المجرى التي في الذكر من أصله من الجانبين، وبالقرب منه ما يقضي إليه أيضًا طرف عنق المثانة وهو طويل في الرجل قصير في النساء. وأما في النساء فيميل من البيضتين إلى الخاصرتين كالقرنين(٢٣) مقوسين شاخصين إلى الحالبين، يتصل طرفاهما بالأربيتين، ويتواتران عند الجماع، فيسويان عنق

(٢٢) Aristote, *De generatione animalium*, 11, 3.

(٢٣) هذا هو الخطأ القديم عن «الرحم ذي القرنين».

الرحم للقبول بأن يجذباه إلى الجانبين، فيتوسع، وينفتح ويبلع المنيّ. وهما أقصر من مرسل زرقه مما في الرجال، ويختلفان في أن أوعية المنيّ في النساء تتصل بالبيضتين، وينفذ في الزائدتين القرنيتين شيء ينبت من كل بيضة يقذف المني إلى الوعاء، ويُسميان قاذفي المني»[٢٤].

ويكمل ابن سينا مناقشته، بعد ذلك، لأسباب كون أوعية النساء أكثر ليونة من حبال المنيّ عند الرجال، ويتبع كليةً جالينوس في تصوره الغائي عن خلق كل عضو لغاية مكتملة النفع.

«وفي داخل الرحم طوق عصبي مستدير في وسطه كالسير وعليه زوائد كثيرة[٢٥]. وخلقة الرحم ذات عروق كثيرة تتشعب من العروق التي ذكرناها، لتكون هناك عدّة للجنين، وتكون للفضل الطمثيّ مدرة، وربطت الرحم بالصلب برباطات قوية كثيرة إلى ناحية السرة، والمثانة، والعظم العريض فما فوقه، لكنها سلسة.... وجعلت من جوهر عصبي له أن يتمدد كثيرًا عند الاستعمال، وأن يجتمع إلى حجم يسير عند الوضع، وليس يستتم تجويفها إلا عند استتمام النمو، كالثديين لا يستتم حجمهما إلا مع استمام النمو، لأنه يكون قبل ذلك معطلًا لا يُحتاج إليه، ولذلك الرحم في الجواري أصغر من الثيّبات بكثير، ولها في الناس تجويفان، وفي غيرهم تجاويف بعدد حلم الأثداء[٢٦]، وموضعها خلف المثانة، وتفضل عليها من فوق كما تفضل المثانة عليها بعنقها من تحت ومن قدام المعيّ، ليكون لها في الجانبين مهاد ومفرش لين، وتكون في حرز. وليس الغرض الأول في ذلك متوجهًا إلى الرحم نفسها. بل إلى الجنين. وهو يشغل ما بين قرب السرة إلى آخر منفذ الفرج، وهو رقبتها وطولها المعتدل في النساء ما بين ست أصابع إلى إحدى عشرة إصبعًا وما بين ذلك، وقد تقصر وتطول باستعمال الجماع وتركه، وقد يتشكل مقدارها بشكل مقدار من يعتاد مجامعتها، ويقرب من ذلك طول الرحم نفسها، وربما ماست المعيّ العليا».

(٢٤) هذا الفصل هو بداية المقالة الأولى من الفن الحادي والعشرين، ويقع في النسخة اللبنانية التي نستخدمها ص ١٦٢٧، المقابلة لصفحة ٥٥٦ من المجلد الثاني لنسخة بولاق. ومن الآن فصاعدًا سوف نشير إلى النسخة اللبنانية بتعبير المرجع المذكور. (المترجم)

(٢٥) هذا هو الخطأ الثاني فيما يخص الزوائد (Cotylédons)، وفي مخطوط آخر للقانون يشبهها ابن سينا بالبواسير.

(٢٦) نقع هنا أيضًا على خطأين جسيمين في التشريح اليوناني، إذ يكرر جالينوس Galien, *De usu partium*, 1. XIV. Ch. 4 هنا المفهوم الخاطئ، ويدافع عنه ضد السفسطائيين بالطريقة التالية: «لا يجرؤ أكثر الناس وقاحة أن يدعي أن العدد المتساوي لتجويفات الرحم والحلمات عند كل الحيوانات قد خُلق من قبل الخالق بلا قصد». De Joannidès, XXX, p. 15.

«وخلقت الرحم من طبقتين، باطنتهما أقرب أن تكون عرقية [ليفية]، وخشونتها كذلك، وفوهات هذه العروق هي التي تتنقر في الرحم، وتسمى نُقر الرحم، وبها تتصل أغشية الجنين، ومنها يسيل الطمث، ومنها يغتذي الجنين، وظاهرتهما أقرب إلى أن تكون عصبية. وكل طبقة منهما قد تنقبض، وتنبسط باستعداد طباعها، والطبقة الخارجة ساذجة [بسيطة] وواحدة والداخلة كالمنقسمة قسمين كمتجاورين... والرحم تغلظ وتثخن كأنها تسمن، وذلك في وقت الطمث. ثم إذا ظهرت ذبلت ويبست، ولها أيضًا ترفق مع عظم الجنين، وانبساطها يُحسب كانبساط جثة الجنين، وإذا جومعت المرأة تدافعت الرحم إلى فم الفرج. كأنها تبرز شوقًا إلى جذب المنيّ بالطبع وإذا قيل الرحم عصبانية، فليس نعني بها أن خلقها من عصب دماغي، بل أن خلقها من جوهر يشبه العصب أبيض، عديم الدم، لدن ممتد. وإنما يأتيها من الدماغ عصب يسير يُحس به. ولو كان أشد عصبانية، لكانت أشد مشاركة للدماغ»[٢٧].

«ورقبة الرحم عضلية اللحم كلها غضروفية، كأنها غصن على غصن يزيدها السمن صلابة وتغضرفًا، والحمل أيضًا في وقت الحمل، وفيها مجرى محاذية لفم الفرج الخارج، ومنها تبلغ المنيّ، وتقذف الطمث، وتلد الجنين، وتكون في حال العلوق في غاية الضيق لا يكاد يدخلها طرف ميل، ثم تتسع بإذن الله تعالى فيخرج منها الجنين. وأما مجرى البول ففي موضع آخر، وهو أقرب إلى فم الرحم مما يلي أعاليها. ومن النساء من رقبة رحمها إلى اليسار، ومنهن من هي منها إلى اليمين. وقبل افتضاض الجارية البكر يكون في رقبة الرحم أغشية تنتسج من عروق، ومن رباطات رقيقة جدًّا ينبت من كل غصن منها شيء يهتكها الافتضاض، ويسيل ما فيها من الدم فاعلم جميع ما قلناه»[٢٨].

إننا نرى أن ترجمة ابن سينا هذه تتفق تمامًا مع التشريح اليوناني في أخطائه، كما في ملاحظاته الصائبة، إلا أنه يجب علينا أن لا ننسى أن الدين كان يحرّم، سواء عند اليونانيين أو المسلمين، تشريح الجسم البشري. ومن ثم، كان التشريح يعتمد لديهم على فحص الحيوانات «المذبوحة». ولقد لاحظ اليونان والعرب ظاهرة انقباض وانبساط الرحم، إلا أنهم أرجعوها - جهلًا منهم بوجود العضلات اللينة - إلى نسيج عصبيّ أي ليفيّ يشكل كتلة جدار الرحم. كما أن وصفهم

(٢٧) ابن سينا، المرجع المذكور: ١٦٢٨.
(٢٨) المرجع المذكور: ١٦٢٩.

لأربطة الرحم غير واضح، وإن كانت معرفتهم بالسمة العامة لتعليق الرحم جيدة. ولم تكن الأوعية الدموية وعروق الرحم، أيضًا، قد دُرست بطريقة جيدة، وإن كان قد تم التعرف على وجودها بسبب نزيف الدم وأوجاع الرحم، كما كان يُنظر إلى المبيض على أنه «خِصية» المرأة المفرِزة للمنيّ الذي كان ينتقل إلى داخل الرحم عن طريق قناة الضخ، التي تمكنت من وصفها، فيما بعد بوقت طويل مكتشفها فالوب Fallope. وكان رباط المبيض والرباط العريض وشكل المهبل وعنق الرحم معروفين، إلا أن الوظيفة الفعلية لهذه الأعضاء لم تُكتشف إلا خلال القرنين السابع والثامن عشر.

فيزيولوجيا الحمل

إن هذا الفصل بالغ الطول ومليء بالتصورات الفيزيولوجية الموروثة عن فلاسفة وأطباء اليونان. ونظرًا لتعذر إيراده كاملًا بسبب اتساعه، فإننا سوف نكتفي بتقديم ملخص حرفي له من ترجمات دي كوننج (ص٧٥٤ وما يليها)، ويشمل النص العربي الصفحات من ٥٥٧ إلى ٥٦٢ من المجلد الثاني من طبعة بولاق للقانون[٢٩] .

فصل في تولد الجنين

«إذا اشتملت الرحم على المنيّ، فإن أول الأحوال أن تحدث هناك زبدية المنيّ، وهو من فعل القوة المصورة. وتحريك من القوة المصورة لما كان في المنيّ من الروح النفساني والطبيعي والحيواني إلى معدن كل واحد منها، ليستقر فيه». ويشرح لنا ابن سينا، بعد ذلك، كيف يتخلّق القلب والرئتان والدماغ وعلقة الدم المتخثر الذي ينجم عن منيّ الذكر والأنثى ويثبت حول السرة. ثم نشأة الأغشية المحيطة بالجنين. ويناقش، بعد ذلك، تصورات المفكرين القدماء عن نظام خلق الأعضاء، إذ زعم إبقراط أن أوائل الأعضاء التي تكونت هي الدماغ والعينان، وأعطى آخرون (أرسطو خاصة) الأولوية للقلب، ومفكر مجهول الاسم للكبد. إلا أن ابن سينا قد دحض هذا الرأي الأخير قائلًا: «وثالث الأحوال استحالة المني إلى العلقة، وبعدها استحالته إلى المضغة،

(٢٩) وهي التي ترادف الصفحات ١٦٢٩– ١٦٣٤ من النسخة اللبنانية (المرجع المذكور). (المترجم)

وهناك تكون الأعضاء الرئيسة قد ظهر لها انفصال محسوس وقدر محسوس وبعدها استحالته إلى أن يتم تكون القلب، والأعضاء الأولى.. وتكون الأطراف قد تخططت ولم تنفصل تمام الانفصال وأوعيتها، ثم إلى أن تتكون الأطراف»[٣٠]. وتخضع هذه التحولات، في نظر ابن سينا، إلى مدة زمنية محددة، إذ تستغرق فترة زبدية المنيّ خمسة عشر يومًا، تتكون في إثرها العلقة. ثم يتشكل، بعد سبعة وعشرين يومًا، القلبُ والكبد والدماغ؛ وبعد ستة وثلاثين يومًا تنفصل الرأس عن المنكبين، وتبرز البطن والأعضاء الأخرى. من ثم، يستغرق التكوين الكامل للجنين أربعين يومًا (وهو العدد المقدس منذ الماضي السحيق). بيد أن ابن سينا يعترف بوجود بعض الاستثناءات التي تتراوح بين أربعة وثلاثين وخمسة وأربعين يومًا، وبأن تكوين الجنين الذكر أسرع من تكوين جنين الأنثى. وقد أجرى ابن سينا هذه الملاحظات اعتمادًا على نماذج من بعض الأجنة المجهضة بعد أربعين يومًا: «وذكر في التعليم الأول أن السقط بعد الأربعين إذا شق عنه السلاء ووضع في الماء البارد، يُظهر شيئًا صغيرًا متميز الأطراف»[٣١]. ثم يلجأ ابن سينا إلى تحديد بعض المدد حسابيًّا إذ يرى أن الحمل الأدنى يستغرق مائتين وعشرة أيام، وأن الجنين الذي يتكون في خمسة وأربعين يومًا يبدأ في التحرك في اليوم التسعين، أي في الوقت اللازم لتكوين لبن الأم، وأن ميلاده سيكون بعد مائتين وسبعين يومًا. أما بالنسبة للأطفال الذين يولدون في الشهر الثامن فتكون مدد تكوين الجنين «أربعين يومًا، ثم ثمانين، ثم مائة وعشرين يومًا».

ويكمل قائلًا: «واعلم أن دم الطمث في الحامل ينقسم ثلاثة أقسام: قسم ينصرف في الغذاء، وقسم يصعد إلى الثدي، وقسم هو فضل يتوقف إلى أن يأتي وقت النفاس فينتقص. والجنين تحيط به أغشية ثلاثة: المشيمة، وهو الغشاء المحيط به، وفيه تنتسج العروق المتأدية ضواربها إلى عرقين [متصلين بالسرة]، وسواكنها إلى عرقين، والثاني يسمى فلاس، وهو اللفائفي وينصب إليه بول الجنين، والثالث يقال له أنفس وهو مفيض العرق، ولم يحتج إلى وعاء آخر لفضل البراز، إذ كان ما يغتذى به رقيقًا لا صلابة له، ولا ثقل، إنما تنفصل منه مائية بول، أو عرق. وأقرب الأغشية إليه الغشاء الثالث، وهو أرقها، ليجمع الرطوبة الراسخة من الجنين. وفي جمع تلك الرطوبة فائدة في إقلاله كي لا

(٣٠) المرجع المذكور: ١٦٣٠.
(٣١) المرجع نفسه: ١٦٣٠.

يثقل على نفسه وعلى الرحم، وكذلك في تبعيد ما بين بشرته والرحم. فإن الغشاء الصلب يؤلمه بمماسته كما يؤلم المماسات ما كان من الجلد قريب العهد من النبات على القروح، ولم يستوكع [يشتد] بعد. وأما الغشاء الذي يلي هذا الغشاء إلى الخارج فهو اللفائفي (Amnios) لأنه يشبه اللفائف، وينفذ إليه من السرة عصب للبول ليس من الإحليل... وجعل للبول مفيض خاص به، لأنه لو لاقى البدن لم يحتمله البدن لحرافته وحدته وذلك ظاهر فيه... والمشيمة (Chorion) ذات صفاقين رفيقين، وتنتسج فيما بينهما العروق، ويتأدى كل جنس منهما إلى عرقين أعني الشرايين والأوردة. فأما عرق الأوردة [السُّرية] فإذا دخلا استقصرا المسافة إلى الكبد، فاتحدا عرقًا واحدًا ليكون أسلم، وبعدًا إلى تحديب الكبد... وبالحقيقة فإن هذا العرق إنما ينبت من الكبد، وينحدر إلى السُّرة، المشيمة، ويفترق هناك، فيصير عرقين، ويخرج ويتحرك في المشيمة إلى فوهات العروق التي في الرحم... وكذلك فإن الشرايين تجتمع إلى شريانين، إن أخذت الابتداء من المشيمة وجدتهما ينفذان من السرة إلى الشريان الكبير الذي على الصلب شركين على المثانة، فإنها أقرب الأعضاء التي يمكن أن يستند إليها هناك مشدودين بأغشية للسلامة، ثم ينفذان في الشريان الدائم الذي لا ينفخ في الحيوان إلى آخر حياته، فهذا هو ظاهر قول الأطباء. وأما في الحقيقة، فهما شعبتان منبتهما الحقيقي من الشريان [الحرقفي]... ويذكر أن الشريان والوريد النافذين من القلب والرئة، لما كان لا يُنتفع بهما في ذلك الوقت في التنفس منفعة عظيمة، صرف نفعهما إلى الغذاء، فجعل لأحدهما إلى الآخر منفذ ينسد عند الولادة[٣٢]. وأن الرئة إنما تكون حمراء في الأجنة، لأنها لا تتنفس هناك، بل تغتذي بدم أحمر لطيف، وإنما تبيضها مخالطة الهوائية، فتبيض. [بعد الولادة]»[٣٣].

ويقوم ابن سينا، إثر ذلك، بعرض النظريات القديمة عن التكوين شبه اللفائفي (Allantoide) لمنيّ الأنثى وفوائده المزعومة، ويعمل على دحضها. كما يعرض أيضًا الافتراضات المطروحة حول جنس المولود، وفقًا لتكوين القلب، وكذلك وجوه التشابه وما يتصل بها من أمزجة مثل الشبه بين المولود الذكر وبين أمه خارجيًّا والعكس. وهو يُرجِع اختلافات البنية (القدود) إلى المادة الأولى

(٣٢) يتبع ابن سينا، هنا، كليةً خطوات جالينوس الذي لاحظ ثقب «بوتال» (Botal) أو الثقب البيضوي، ولكنه اعتبره نقطة اتصال بين الوريد الأجوف ووريد الرئة.

(٣٣) المرجع المذكور: ١٦٣١-١٦٣٢.

للجنين، وإلى قلة أو وفرة الغذاء، وإلى سعة أو صغر رحم الأم. ويقول ابن سينا في ذلك: «والسبب في التوأم كثرة المنيّ حتى يفيض إلى بطني الرحم فيضًا يملأ كلًّا على حدة»[٣٤]. وينسب ابن سينا غزارة الإخصاب إلى الاختلاجات المتتابعة للرحم عند التلذذ: «وربما وافق زرقه ذكورية صبه أنثاوية، فاختلطا، ويليها زرقات مثل ذلك مرة بعد مرة، فحملت المرأة ببطون عدة، إذ كل اختلاط ينحاز بنفسه... وقد تقبل المرأة والحجرة (الأنثى من الخيل) منيًّا على منيّ وتلدهما جميعًا»[٣٥].

«وأما الولادة، فإنما تكون إذا لم يكفِ الجنين ما تؤديه إليه المشيمة من الدم. وما يتأدى إليه من النسيم وتكون قد صارت أعضاؤه تامة، فيتحرك حينئذ عند السابع إلى الخروج كما تتم فيه القوة. وإذا عجز أصابه ضعف ما لا تثوب إليه معه القوة إلى التاسع، فإن خرج في الثامن، خرج وهو ضعيف[٣٦] لم ينزعج عن قوة مولده... وخروج الجنين إنما يتم بانشقاقه الأغشية الرطبة، وانصباب رطوبتها وإزلاقها إياه، وقد انقلب على رأسه في الولادة الطبيعية، لتكون أسهل للانفصال. وأما الولادة على الرجلين، فهو لضعف الولد فلا يقدر على انقلاب، وهو خطر، ولا يفلح في الأكثر. والجنين قبل حركته إلى الخروج، فقد يكون معتمدًا بوجهه على رجليه، وبراحتيه على ركبتيه، وأنفه بين الركبتين، والعينان عليهما، وقد ضمّهما إلى قدامه، وهو راكن عنقه ووجهه إلى ظهر أمه حماية للقلب، وهذه النصبة أوفق للانقلاب. على أن قومًا قالوا إن الأنثى تكون نصبة وجهها على خلاف هذه النصبة، وإنما هذا للذكر، ويعين على الانقلاب ثقل الأعالي من الجنين، وعظم الرأس منه خاصة، وإذا انفصل انفتح الرحم الانفتاح الذي لا يقدر في مثله مثله، ولا بد من انفصال يعرض للمفاصل، ومدد عناية من الله تعالى معدة لذلك، فترده عن قريب إلى الاتصال الطبيعي، ويكون ذلك فعلًا من الأفعال القوية الطبيعية والمصورة. وبخاص أمر متصل من الخالق لاستعداد لا يزال يحصل مع نمو الجنين لا يشعر به، وهذا من سر الله، فتعالى الله الملك الحق المبين، وتبارك الله أحسن الخالقين. فحاصل هذا أن سبب ولادة الجنين الطبيعية، احتياجه إلى هؤلاء أكثر، وغذاء أكثر، وعند انتباه قوى نفسه لطلب سعة المجال والنسيم الرغد والغذاء

(٣٤) المرجع المذكور: ١٦٣٣.

(٣٥) يتفق هذا الرأي وكلام أرسطو: «ليس من بين الحيوانات جميعًا إلا المرأة وأنثى الخيل اللتان تسمحان بالجماع خلال فترة الحمل». Aristote, *De generatione animalium*, livre IV, Chap. 5.

(٣٦) انظر فيما بعد تصورات القدماء عن مخاطر الولادة في الشهر الثامن.

الأوفر، هرب عن الضيق وعن عوز النسيم، وقلة الغذاء، وإذا لم يكن يحصل النوم والانتباه. فإذا تحصلا منه ضحك بعد الأربعين يومًا»[٣٧].

إننا نلاحظ في هذا الفصل أيضًا، باستثناء بعض التفاصيل أن فيزيولوجيا الجنين عند ابن سينا تعتمد، بجلاء، على اليونان، إذ إن «رغوية» أو «زبدية» المنيّ قد أكدها جالينوس[٣٨]، كما ذكر أيضًا عملية امتزاج «المنيَّيْن» في تكوين الجنين[٣٩]. بيد أن فكرة أولوية خلق السرة غير موجودة في الطب اليوناني، ولعلها فرضية شرقية المصدر. إن نظرية «المنيَّيْن» عامة لدى فلاسفة اليونان (فيثاغورث، ألكميون، برمنيدس، إمبدوقليس، ديموقريطس، أبيقور)، وقد تبنَّتها المدرسة الإبقراطية. ولكن أرسطو دافع عن فكرة تخلق الجنين من منيّ الذكر ودماء حيض المرأة، وهو ما دحضه اكتشاف مبايض المرأة على يدي هيروفيلوس؛ طبيب التشريح السكندري الكبير في القرن الثالث. وقد تخلى عن هذه الفرضية أيضًا جالينوس وابن سينا ومَن تبعه مِن الأطباء العرب. أما بالنسبة لتصور ابن سينا للأغشية الجنينية فهو مطابق لتصور اليونانيين، وكذلك بالنسبة للسائل الرهلي أو السلي الناجم على بول وعرق الجنين. وإذا أخذنا في الاعتبار صعوبة الحصول على أجنة بشرية فتية، نجد أن أطباء اليونان والعرب قد جمعوا عددًا لا بأس به من التفاصيل. ولقد لاحظوا في هذه الأجنة، بدءًا من يومها العشرين، ظهور الثنايا والطيات التي تتكون وتسبق تكوين الأعضاء. كما لاحظوا ظهور الحركات الأولى للطفل بين اليوم السبعين واليوم التسعين.

أما بالنسبة لفكرة ابن سينا عن التوأم فهي مستوحاة من المدرسة الإبقراطية. وبالنسبة لفكرة الحمل على الحمل فترجع إلى مؤلف الكتاب السابع المجهول عن «تاريخ الحيوان» المنسوب إلى أرسطو. إذ إنه هو الذي تحدث عن تواتر التوائم في مصر، وعن وجود توائم ثلاثية ورباعية وخماسية. ولعل ما يلفت النظر هو غياب أية فكرة واضحة عن السخد (Placenta) لدى أطباء العصور القديمة والوسطى. أما مصدر عدد الأيام المعتمدة لتطور الجنين حتى ولادته فترجع إلى فيثاغورث الذي حددها بمائتين وعشرة أيام على الأقل، وهو ما تبعه فيه ابن سينا. ولقد تصور

(٣٧) المرجع المذكور: ١٦٣٤.

(٣٨) في كتابه *De usu partium*, 1. XIV. Ch. 11.

(٣٩) في كتابه *De Semine,* 1. I. Ch. 8.

الإبقراطيون أيضًا كيف يبدأ الطفل بدفع نفسه بسبب نقص الغذاء، وكيف يوسع الممر الذي سيخرج منه بنفسه، كما رأوا أن عملية قلبه السابقة على خروجه تعود إلى قوة الجذب التي يتعرض لها. إن المدعو أرسطو هنا هو أول من وصف وضع الجنين في رحم الأم كما نقع عليه عند ابن سينا. أما فيما يخص التصورات الأخرى، فإن ابن سينا يتبع فيها جالينوس حتى فيما يتعلق بتقدير الخالق وإجلاله في تدبيره لعملية الولادة. إن جالينوس الوثني، المؤمن بتعدد الآلهة، ينسب هذا التدبير إلى الطبيعة في قوله: «لقد وجدت الطبيعة فيما يخص هذه الاستعدادات وغيرها الخاصة بالولادة وسائل مدهشة. ويجب أن يذكرنا هذا الأمر بالمزايا التي ضحتنا إياها براعة الفنان الذي خلقنا، كما يجب أن يُظهر لنا ذلك. بوضوح، ليس فحسب حكمة هذا المبدع، وإنما قدرته أيضًا»[٤٠]. على هذا النحو، يُمجد ابن سينا قوة الله، الخالق الأوحد، كما يعبر في كلمات بالغة التأثير عن عمق إيمانه وتقواه؛ إلا أن ذلك لم يمنع متشددي العصور التالية من لومه على هدم المعتقدات الإسلامية باتباعه الفلسفة الأرسطية.

أمراض الرحم

يشمل هذا الجزء من المقالة الأولى للفن الحادي والعشرين من كتاب «القانون» لابن سينا سبعة عشر فصلًا مختلفة الطول، ويمثل من نسخة بولاق العربية الصفحات ٥٦٢-٥٧٠ من الجزء الثاني[٤١]، كما يشكل من نسخة الترجمة اللاتينية كبيرة الحجم التي قام بها جيرار دي كريمون G. de Crémone ست صفحات عريضة، دقيقة الحروف[٤٢].

وتشرح لنا الفصول الخمسة الأولى كيف يمكن للرحم أن يعاني من أمراض عامة وعضوية وأخرى تعرض للجسم كله. ثم يعرض ابن سينا أمزجة الرحم الأربعة (الحرارة، البرودة، الرطوبة، اليبوسة) وفقًا لنظرية جالينوس الذي بيّن دلائل وسمات هذه الاستعدادات الأولية (المبادئ) المزعومة، أو هذه التكوينات (Constitutions)، كما نقول اليوم.

---

(٤٠) *De usu partium*, XV. Ch. 7.

(٤١) الموازية في النسخة اللبنانية المنقولة عنها للصفحات ١٦٣٤-١٦٤٤.

(٤٢) جيرار الكريموني (١١١٤-١١٨٧م): كاتب ومترجم إيطالي، له عظيم الفضل في إنقاذ العديد من الكنوز العلمية للعصر القديم. (المترجم)

الفصل الثامن يتحدث عن «العقر وعسر الحبل»: «سبب العقر. إما في منيّ الرجل، أو في منيّ المرأة، وإما في أعضاء الرحم، وإما في أعضاء القضيب وآلات المنيّ، أو السبب في المبادئ كالغم، والخوف، والفزع، وأوجاع الرأس وضعف الهضم، والتخمة..»[٤٣]. ويعدد ابن سينا هذه الأسباب، الواحد تلو الآخر، ويناقش كل سبب بإسهاب وهو يرى جزءًا من هذه الأسباب في الأمزجة المتعارضة لمنيّ الرجل والمرأة. وفي ضعف المنيّ لدى المرضى، والسُّكارى، والشيوخ، ولدى من يعانون من سوء الهضم، ومن يكثرون من الجماع (الباه) فالمنيّ، كما يقول إبقراط، «يأتي سليمًا من السليم ومريضًا من المريض». وهذا الأمر ينسحب على الجنسين، ولعل عقم الرحم نفسه يرجع إلى «سوء مزاجه» أو إلى مزاجه البارد، وهو ما يفسد المنيّ ودم الطمث، ويعمل على تقليص المسام التي يصل عن طريقها هذا الدم لتغذية الجنين. كما يمكن أن تنقص الرحم «قوة الجذب» اللازمة لسحب منيّ الرجل، أو أن يكون مسدودًا، بسبب ضيق عنقه أو إثر قرحة خلّفت ندبة، أو بسبب لحم زائد ثؤلولي (Polype) أو انحراف أو «مزلق»، أو انسداد مانع إياه عن الوصول لانضمام الرحم. وهناك أسباب أخرى لعقم المرأة، وهي البدانة بصفة عامة، وسمنة الأجزاء المحيطة بالأعضاء التناسلية، أو إصابة تعتري الرحم كالأورام والقروح والبواسير أو الزوائد اللحمية.

كما قد تعاني المرأة أحيانًا من انسداد فتحة الرحم بواسطة لحمة صلبة تشبه القضيب، أو بسبب قروح مندملة أو عوائق أخرى تسد فتحات العروق الموصلة لدم الطمث إلى الجنين لتغذيته. ويُضيف ابن سينا إلى ذلك أسبابًا أخرى مثل ضعف أوعية المنيّ أو فسادها إثر إصابة في المثانة أو لعيب في مئية القضيب والمهبل يعوق وصول المنيّ إلى فتحة الرحم. ويضفي ابن سينا أهمية كبرى على عملية تزامن قذف الذكر والأنثى (يقصد حد الإشباع عند المرأة)، كما أشار إلى أطباء اليونان[٤٤]. ويستشهد ابن سينا بكلام إبقراط في تأكيده على أن مزاج الرجل ليس أبرد من مزاج المرأة لا في جسمه وأعضائه ولا حتى في منيه. ويردف قائلًا: «واعلم أن المرأة التي تلد وتحبل أقل أمراضًا من العاقر، إلا أنها تكون أضعف منها بدنًا، وأسرع تعجيزًا. وأما العاقر فتكثر أمراضها، ويبطؤ تعجزها، وتكون كالشابة في أكثر عمرها»[٤٥].

(٤٣) المرجع المذكور: ١٦٣٥.

(٤٤) Soranus I, 37-38.

(٤٥) المرجع المذكور: ١٦٣٧.

يتطرق ابن سينا، بعد ذلك، إلى المسألة الدقيقة الخاصة بتشخيص العقم وتحديد أعراضه. وهو يبدأ كلامه بمجموعة من الأقوال يفتتحها بعبارة «قالوا»، ومعظمها مستمد من المعتقدات الشعبية، ويضيف بأنه يستحيل عليه التأكد من صحتها. على هذا النحو، يقول بأن بعض الناس ذهبوا إلى أنه يجب وضع قليل من مني الرجل والمرأة في الماء، فأيهما طفا يكون صاحبه العقيم. كما نصحوا أيضًا بصبّ بعض البول لكلٍّ منهما على حدة، على جذور حبتين فأيهما تجف خلال بضعة أيام تكون دليلًا على عقم صاحبها. كما نُصح، أيضًا، بأن يبول كلٌّ من الرجل والمرأة على سبع حبات من الحنطة أو الشعير، وعلى سبع باقلات موضوعة في إناء من الخزف، فإذا نبت الحبّ في غضون سبعة أيام، يكون ذلك دليلًا على انعدام العقر لدى صاحب البول، ويُعد هذا الاختبار الأخير طريفًا بقدر ما كان يلجأ إليه قدماء المصريين (بردية Brugsch في الطب ببرلين)، إذ كان يُستدل من بول المرأة الحامل على حفنة من الحنظل أو الشعير على جنس المولود المتوقع: ذكرًا كان أم أنثى. وهناك اختبار آخر يستحسنه ابن سينا، وهو أن تقف المرأة على وعاء به نجور عطر، فإذا نفذت الرائحة من جسمها إلى فيها وأنفها كان ذلك دليلًا على انفتاح مسام جلدها وعلى قابليتها للحمل. إلا أن ما يعتبره ابن سينا مؤكدًا في تشخيصه يظل ملاحظة مزاج جسم المرأة وسرعة نبضها، وهيئة المنطقة التناسلية وحال شعر العانة، ولون البول والمنيّ ووفرتهما، بالإضافة إلى جودة وكمية دم الطمث، والفحص المباشر للأورام ولانسدادات الرحم المذورة من قبل. ويلاحظ أن المرأة التي تعاني من ميلان أو انقلاب في الرحم غالبًا ما تشعر بالألم عند الجماع.

أما بالنسبة للنظام العلاجي، الذي يتبناه ابن سينا، لعلاج العقم، فإنه يقدم لنا العديد من النصائح في فصل بالغ الطول. ونذكر في هذا الشأن، ما يقدمه من تفاصيل دقيقة حول أفضل الطرق للجماع، ووضع المرأة خلال وبعد الاتصال الجنسي لنفاذ المني إلى الرحم. وهو يوصي باستخدام بعض الأبخرة الخفيفة بعد الجماع خاصة من الصموغ كالمُقل (Bdellium) وبعض الطيوب الحارة لتصحيح «المزاج البارد للرحم». وينصح، كذلك، بجلب الحرارة مباشرة إلى فتحة الرحم بواسطة أنبوب يوضع طرفه الآخر في رماد حار. ويضيف إلى ذلك العلاج بواسطة وضع محاجم معدلة للحرارة حول الرحم أو عن طريق فصد الوريد الصافن. ويرى ابن سينا أن بعض الأشكال الأخرى من العقم تتطلب استخدام الحمامات الساخنة، والحقن الحارة، وكل ذخيرة

أدوية العصور الوسطى البسيطة منها والمركبة. ونذكر منها بعض الأدوية اليونانية مثل ترياف مثروذيطوس (Mithridate) المشهور، وهو، في البداية، نوع من المضاد، إلا أنه استخدم فيما بعد، باعتباره دواءً عامًّا، ودماء الثياذريطوس (Théodorète)، وهو طبيب بيزنطي غير محدد العصر. وينصح ابن سينا، في سبيل تضييق فتحة الرحم، باستخدام مجسات ثابتة تسمى بالعربية «ميل» في مختلف الأحجام. وليس هذا إلا استنساخًا للكلمة اليونانية (*unhn*) التي تنطق حديثًا (mili) وليس (mêlé). ومعظم الأدوية التي يوصى بها من البذور. أما الدواء الوحيد الذي ينتمي إلى عائلة الأدوية المنفردة، فهو بول الفيل الذي ينصح بتناوله قبل الجماع، ويمكن أن تستبدل به نشارة العاج. ويبدو أنه كان يُنسب إلى أعضاء الحيوانات غليظة الجلد تأثير خاص على خصوبة النساء. كما يقدم ابن سينا وصفات عديدة للتدليك ببعض الزيوت طيبة الرائحة وبعر الحيوانات، ولبعض الفرزجات والشيافات وبعض المواد غير المجدية، وفقًا لمعرفتنا الحالية، كدهن البلسان والبان والسوسن، وحب الغار والمسك وجوز السرو والشبت والكمون والخروع وصمغ المصطكا وغيرها.

وليس من شك في أن هذا الفصل مستوحى من الطب اليوناني. إلا أنه يُعد تطويرًا منهجيًّا لموضوع العقم أفضل مما نجده في العصور القديمة. ونحن نُذكّر بأننا نجد بالفعل في المجموعة الإبقراطية *Corpus Hippocraticum* مبحثًا من ثلاثة كتب عن النساء العاقرات(٤٦). أضف إلى ذلك أن أرسطو يعتبر المظهر الذكوري للمرأة والمظهر الأنثوي للرجل إحدى علامات العقم(٤٧). خلا ذلك، فإن ابن سينا يقتفي نظرية جالينوس ويستشهد حتى بالمقارنة التي يقيمها هذا الأخير بين اضطراب الطمث عند المرأة وبين الأرض الجدباء التي لم تُعدّها الطبيعة للإنبات. أضف إلى ذلك أن عيوب الرحم التي تعوق الإنجاب قد تم وصفها أيضًا في مجموعة المؤلفات المزعومة لجالينوس(٤٨).

(٤٦) TTeoi â clóewv Peri aphórôntd. Litter, t. VIII, p. 408-463.

(٤٧) Aristote, *De generatione animalium*. Ch. 7.

(٤٨) *Historia philosophica*, éd. Kuehn, vol XIX, p. 316 et suiv.

فيزيولوجيا الحمل (علامات الحبل وأحكامه)

نجد هذه الفيزيولوجيا في الفصل الحادي عشر، وفقًا للترقيم اللاتيني. ويحمل هذا الفصل في النص العربي العنوان التالي: «علامات الحبل وأحكامه». وهنا يبدأ ابن سينا في إعادة عرض عملية الجماع ومزج المنيين. يعتبر أن أول مظاهر الحمل هو احتباس الطمث، ثم ظهور الآلام بين السرة والقُبُل (Pubis)؛ كما يحدث عند بعض النساء نفور من الجماع ثم يظهر الغثيان والتقيؤ المعروفان؛ وهما، في نظر ابن سينا أكثر حدة عند حمل المرأة بالذكر. وتلي ذلك الأحاسيس بثقل البدن وعمليات الجشاء والصداع، ويحدث أحيانًا خفقان بالقلب وظلمة بالعينين. ونلاحظ خلال شهرين، في الأغلب ظهور شهوات خبيثة في الذوق واصفرار في بياض العينين اللتين تغوران ويحتد نظرهما بسبب لمعان يحدثه تمدد الحدقتين. وتعد هذه الأعراض أقل بروزًا عند النساء الحاملات بالذكور. وتبدأ، بعد ذلك أوجاع الظهر والورك والجانبين، وهي أوجاع غالبًا ما تختفي قرب نهاية الحمل. وكذلك تنتفخ الحلمتان وتكتسب لونًا يتراوح بين الأصفر والحمرة؛ كما يظهر نوع من الالتواء في العروق. وترجع هذه العلامات الأخيرة إلى احتباس الطمث وبداية تحسن حالة الأم مع كبر الجنين وتغذيته بدم الطمث المتبقي. أما حمل البنات، التي لم تبلغ بعد خمس عشرة سنة، فيتسم بالخطورة، وقد يؤدي إلى المنية بسبب صغر حجم الرحم. أما النساء البالغات فقد يتعرضن للحمّى الحادة التي تؤدي بحياة الجنين وحياتهن أحيانًا. ولعل الأخطر من ذلك الأورام الحارة (الخراجات والفلغمونيا (Phlegmons) التي تصيب المنطقة التناسلية، وكذلك المشارة «كلمة سريانية» وتعني الحُمرة).

ثم يقوم ابن سينا بتقديم بعض الطرائق، المأخوذة من غير شك من الموروث الشعبي، لتشخيص الحمل: كأن تُسقى المرأة، قبل النوم، أوقيتان من العسل الممزوج بأوقيتين من ماء المطر، فإن سبّب لها هذا الشراب مغصًا فهي حامل. ومن بين الوسائل الأخرى القيام بتبخيرها بعد صيام يوم حتى خروج الدخان والرائحة من الفم والأنف، أو إيلاج ثومة في الفرج خلال الليل وما يتبع ذلك من إحساسها بالرائحة في الأنف. وتدل كلٌّ من الطريقتين السابقتين على انفتاح مسام الجسم ومن ثم على انعدام الحمل. ويكون البول، في بداية الحمل، أصفر صافيًا ثم يميل، فيما بعد، إلى الزرقة (العتمة) والعكر؛ ثم يرجع في أواخر الحمل، إلى الاصفرار وإن شابته ضبابية؛ وتتكون فيه أحيانًا

حبوب بالغة الدلالة، ويميل أخيرًا إلى الاحمرار. وحينما نحرك قارورة بول الحامل في بداية حملها، يظل بولها صافيًا، ولكنه ينتهي بالعكر في نهاية الحمل.

أسباب الإذكار والإيناث

يُعير ابن سينا هذه الأسباب أهمية كبيرة نظرًا للامتيازات الشرعية التي يحظى بها الذكور في المجتمعات الإسلامية والشرقية بعامة. من ثم، نراه يكرس لها فصلين طويلين ولكننا لن نوليهما اهتمامنا الأكبر. ومن بين الأعراض الدالة على الحمل بالمولود الذكر، يشير ابن سينا إلى الطابع المخفف للاضطرابات المزاجية عند المرأة وإلى الإحساس بحركات الجنين الإيجابية كالثقل على الجنب الأيمن، وإلى انتفاخ الثدي بشكل ملحوظ وحمرة الحلمتين مع سواد خفيف، وإلى عدد من العلامات الأخرى التي نعلم أنها لا تسمح بتشخيص دقيق. وتعد محاولات ابن سينا لتحديد ميلاد الذكر والأنثى أدنى للأخذ في الاعتبار من الأسباب الأخرى، خاصة حينما يحاول تحديد نوع المولود عن طريق تدبير بعينه. ذلك أننا نعثر هنا، في الواقع، على الأفكار السائدة في الطب اليوناني، منذ مجموعة إبقراط التي تنسب إلى الجنب الأيمن قوة أشد تساعد على ولادة الذكور. وسوف ننتقي من بين الوسائل التي أوصى بها أطباء اليونان لإنجاب الذكور ما تبناه ابن سينا نفسه، وهي: الجماع في الوقت الأخير من الطمث أو في وقت الطهر، مع اتباع نظام (Régime) جاف. أما النظام السائل أو المائي فهو أدعى إلى إنجاب الإناث[٤٩].

الحبل على الحبل (الحمل المتعدد)

يتطرق ابن سينا إلى هذا الموضوع في الفصل السابع عشر وعنوانه «فصل في سبب التوأم والحبل على الحبل». وهو يرى أن الحمل بالتوأم غالبًا ما ينجم عن جماع واحد؛ وسببه كثرة منيّ الرجل الذي ينقسم إلى جزأين يتجه كل جزء منهما إلى جوف من جَوْفَي الرحم حيث ينمو كلٌّ على حدة. وغالبًا ما تكون المتئم من النساء البدينات غزيرات الشعر والدم، أو باختصار صاحبات «المزاج الحار». وإذا حدث بعد العلوق وقوع الطمث مرة أخرى، وهذا محتمل، فإن الحمل على

(٤٩) Fischer, *Die Gynäkologie bei dioskurides und plinius*. Wien, 1927. p. 28.

الحمل قد يتم، ولكنه خطر على الأم والطفلين معًا. وحتى بالنسبة للنساء القويات، فإن التزاحم بين الولدين قد يؤدي إلى حمى وانتفاخ في الوجه (نظرًا لالتهاب كلية الحامل؟) وإجهاض، كما أن العلامة المائزة لوجود أطفال أُخر في الرحم بعد ميلاد الأول هي بروز عقدة أو أكثر في سُرة هذا المولود وفقًا لعدد الأطفال الذين ما زالوا بعدُ داخل الرحم!

يلي ذلك فصل قصير عن أعراض نهاية الحمل واقتراب الولادة وهي، بوجه خاص، إحساس بالثقل في أسفل البطن، وبانتفاخ في عنق الرحم، وآلام في الأربية.

ولقد سبق لنا الحديث عن معارف أطباء اليونان في مجال الحمل بالتوأم والحمل على الحمل. ونضيف إلى ذلك أن هذه الظاهرة الأخيرة كانت تُنسب إلى ضعف في قابلية تقلص فتحة الرحم بعد الحمل الأول. وكان الاعتقاد السائد هو أن التوائم قد يولدون في فترة تتراوح بين ثلاثين وأربعين يومًا، أي بفارق عشرة أيام؛ وأنه في حالة ميلاد توأم قد يشبه أحدهما الزوج والآخر عاشق الأم!

أما الفصلان التاسع عشر والعشرون فبالغا القصر، ويتناولان أعراض ضعف المولود قبل وبعد ولادته. والعلامة الأولى، التي تخص الجنين، هي انعدام أو ضعف حركته. أما بالنسبة للمولود حديثًا، فأسباب الضعف هي ضيق سرته، وقلة حركته أو غيابها، وعدم عطسه، وعدم انتظام قدرته على الإفراغ، الأمر الذي يؤدي، في هذه الحالة الأخيرة، إلى انعدام صلاحيته للحياة، ومن ثم، إلى وفاته.

والمقالة الثالثة من الفن الحادي والعشرين لكتاب القانون (الثانية من نسخة المؤلف القديمة) تحمل عنوان: «في الحمل والوضع»، وتشمل تسعة وثلاثين فصلًا بعضها طويل والآخر قصير. والفصل الأول مكرس لعدد من الملاحظات والاعتبارات العامة.

مدة الحمل

يمكن أن يولد طفل قابل للحياة ابتداءً من الشهر السابع ومع ذلك، يموت كثير من أطفال الشهر السابع، وهو ما يرده ابن سينا إلى شدة حركة الجنين قبل ولادته. وبالنسبة لمواليد الشهر

الثامن فالخطر أشد لميلهم إلى الخروج (التفصي) من الرحم قبل اكتمال قوة الخلقة المطلوبة. وأحيانًا يكون انقلاب الطفل سببًا في ضعفه، بينما يتمتع طفل الشهر التاسع بالقوة والحيوية إذ إنه قد ثابت إليه قوته بعد جهد الانقلاب، أما أطفال الشهر العاشر فظروفهم أقل يسرًا لأن أجنتهم لم تتمكن، بسبب ضعف حركتها، من الانفصال عن الرحم في الوقت الملائم؛ إنهم يُشبهون في ذلك أجنة الشهر الثامن، ومع ذلك، فبعضهم يولدون في قوة أطفال الشهر التاسع.

إننا نقع في هذا الفصل على عدة مفاهيم يونانية في الأساس. ذلك أن الفكرة الغريبة عن الخطر الداهم الذي يتهدد طفل الشهر الثامن، والذي يجعله، إلا في النادر غير قابل للحياة، موجودة في مجموعة إبقراط. ونذكِّر في هذا الصدد بمبحث «*Peri Oktamênou*» أي «عن الجنين في الشهر الثامن»[٥٠]. أما نظرية قابلية طفل الشهر السابع للحياة أكثر من قابلية الطفل الثامن، فلقد انتقلت من الطب اليوناني والعربي إلى الطب الغربي، وما زالت قائمة حتى اليوم في الطب الشعبي لكثير من الأمم. كما أن ديبجن Diepgen قد ذكر في كتابه (ص١٦٢) أن بعض علماء اليونان قد حارب هذا الافتراض، إذ يستشهد أرسطو ببعض الحالات التي عاش فيها أطفال الشهر الثامن، أضف إلى ذلك ما يقوله مؤلف الكتاب السابع من «تاريخ الحيوان» (المنسوب خطأ إلى أرسطو) عن موت أطفال الشهر الثامن دومًا في اليونان، وعن كونهم يعيشون في مصر بفضل حرارة المناخ. أما النظرية الخاصة بضعف أطفال الشهر العاشر فلا وجود لها لدى اليونان الذين كانوا يظنون أن هؤلاء كانوا أقوياء، ومن ثم قابلين للحياة بقدر أطفال الشهر التاسع.

التدبير الكلي للحوامل

هذا عنوان الفصل الثاني في المقالة، ويقول فيه ابن سينا: «يجب أن يُعتنى بتليين طبيعتهن دائمًا بما يليّن باعتدال مثل الإسفيذباجات الدسمة، ومثل الشيرخشت[٥١] ونحوه، إذا اعتقلت الطبيعة جدًّا، وأن يكلفن الرياضة المعتدلة، والمشي الرفيق من غير إفراط، فإن المفرط يسقط»[٥٢].

(٥٠) Ed. Litter, VII, p. 452-461.

(٥١) يشرح المستشرق أحيانًا أصل المصطلحات المستخدمة، فالإسفيذباجات فارسية ومعناها «اللحم الأبيض»، والشيرخشت لفظ فارسي أيضًا ويعني «المنّ».

(٥٢) المرجع المذكور: ١٦٤٦.

ويستحسن أن يتجنبن الاستحمام حتى موعد اقتراب الولادة. وعليهم كذلك الامتناع عن دهن رءوسهن بالزيوت، إذ قد يسبب ذلك لهن نزلة من البرد وسعالًا، الأمر الذي يزعزع الجنين ويُعدّه للإسقاط المبكر، كما عليهن تجنب الحركات العنيفة والوثبات والضربات والسقوط والغضب والجماع والإفراط في الغذاء المسبِّب للتُّخْمة. ويرى ابن سينا أن المخاطر تزداد بشكل خاص في الشهر الأول، وأن الانفعالات سيئة دائمًا. كما يوصى بنظام غذائي يقوم، بجانب اللحم الأبيض، على الزيرباحات (الحساء الدسم) مع الخبز جيد النضج، ويحرم، كذلك، كل ما هو حرّيف ومرّ كالكبر والترمس والزيتون الفج (الأخضر)، وغير ذلك كاللوبيا والحمص والسمسم. ويرى، على النقيض، أهمية حساء السَّويق من الحنطة نظرًا للفائدة الغذائية السريعة، وشراب الريحاني المذاب، ويستشهد في هذا الصدد بكلام إبقراط الذي يفضل النبيذ الأحمر (الرقيق الأسود). كما يضيف إلى هذا التدبير الغذائي الزبيب والكمثرى المثيرة للشهية والتفاح والرُّمان المزّ. ثم يقدم وصفته لمحلول جوارشن (لفظ فارسي) اللؤلؤ[٥٣]، وبعض الاقتراحات بوصفات أخرى تحتوي على معظم العقاقير الشرقية في زمنه.

تدبير النفساء

هذا هو عنوان الفصل الثالث. ولقد عبرت الترجمة اللاتينية عن لفظة «النفساء» العربية بكلمة «*Enixa*».

يجب، في البداية، أن تجتهد النفساء في أن يعود إليها درور الطمث، وأن تحافظ على نظام غذائي خفيف؛ إذْ إن التغيير المفاجئ والانتقال إلى الأغذية الثقيلة قد يُسببان لها الحمّى ويُضعفان «القوة المغيّرة في كبدها» (حيث كان القدماء يرون العضو المعدّ للدم ولقوة الحياة). إن ذلك قد يُسبب لها العطش وتصلب الكبد والاستسقاء المهلك. وإذا اعتلت النفساء، ثم جاوزت يومها العشرين أو الرابع والعشرين من غير أن تُتوفى، فإنها تكون قد تخطت خطر الانقضاء.

إن هذا الفصل القصير لا يوفر لنا أفكار الطب اليوناني التي سوف نجدها في الفصول التالية.

(٥٣) «يؤخذ لؤلؤ غير مثقوب درهم، عاقر قرحا درهم، زنجبيل ومصطكي، من كل واحد أربعة دراهم، زرنباد ودرونج وبزر كرفس، وشيطرج وقاقلة وجوز بوا وبسباسة وقرفة من كل واحد درهمان...». المرجع المذكور: ١٦٤٦. (المترجم)

شهوة الحوامل

يتحدث ابن سينا، في هذا الفصل الرابع، وفقًا للترقيم اللاتيني، بداية عن فقدان الشهية لدى الحوامل. فإذا حدث ذلك، يجب حرمانهن من الأغذية الدسمة وشديدة الحلاوة، وأخذهن بالقصد في شرب الماء. وإذا عرض لهن غثيان وقيء يقدم إليهن شراب الريحان الرقيق الذي سبق ذكره، والذي يعمل، بجانب نفعه، على رد الشهية إليهن. ويشير ابن سينا، بعد ذلك، إلى مجموعة من الأدوية القابضة و«الحارة» المعيدة للشهية مثل عصا الراعي (Aviculaire) المطبوخ بالشبث (Aneth) والزراوند (Aristoloche) وغير ذلك. وعلى العكس، إذا اشتدت شهية الحوامل يجدر معالجتهن بعقاقير مضادة مثل عسل الورد (ماء الجلنجبين بالورد الفارسي)، ورُبّ الحصرم بالعسل وماء السكر والنشا الذي يساعد، في الوقت نفسه، على غذاء الجنين. كما يوصي ابن سينا، بالنسبة للنساء اللواتي يشتهين الجبن، بالجبن الرطب غير الحرّيف، أما ضد رياح المعدة فينصح باستعمال جوارشن (معجون) من الكمون والكُندر والسعتر الفارسي ومن عناصر أخرى. كما ينصح أيضًا بوضع الأضمدة على معدهن، وباستخدام بعض المنقوعات والدهانات المتنوعة.

يلي هذا الفصل فقرتان بالغتا القصر، حيث يناقش ابن سينا خفقان القلب ودوام سيلان الطمث. ويرد ابن سينا هذا الخفقان إلى اعتلالٍ أو «خلط» في فم المعدة (Dyscrasie)، ويطلب علاجه بتجرع الماء الحار وبعض التمرينات الخفيفة. كما ينصح بمعالجة سيلان الطمث ببعض القوابض والضمادات الموضعية.

وفي فصل ثالث بالغ القصر، ينصح بمداواة تورم أقدام الحوامل بضمادات تؤخذ من الخل الممزوج بالنبيذ وبواسطة مواد متنوعة كالشبث والأترج.

الإسقاط وعلاجه

يشغل هذا الباب ستة فصول طويلة لن نستطيع أن نقدم منها إلا ملخصًا وجيزًا وبعض الترجمات الجزئية.

يُعدّد ابن سينا، في البداية، أسباب الإجهاض، وهي التي سبق ذكرها في قسم أمراض الرحم. وسوف نستبقي منها إطالة الاستحمام، والأسباب التي تؤدي بحياة الجنين. وأهم هذه الأخيرة: وَهَن الجنين وبعض العيوب في تكوين الرحم مثل وجود رياح به تعوق تغذية الجنين، وكذلك الأورام والقروح وأمراض أخرى سبقت الإشارة إليها. ويزعم ابن سينا أن الإجهاض يكثر في البلدان الجنوبية والمناخات الحارة، ويقل في الشمالية منها؛ ويعتقد كذلك أن آلام الإجهاض أكثر شدة من آلام الولادة.

ومن علامات الإجهاض، يذكر ابن سينا ضمور الأثداء بعد اكتنازها؛ فإذا حدث ذلك في أحد الثديين، فإننا نكون بصدد توأم قد مات أحدهما «من ذلك الجانب»؟ ومن الأعراض الأخرى يذكر أوجاع الرحم، وشدة احمرار الوجه، والرعشة والإحساس بثقل في الرأس وببعض الآلام الموضعية بحجاج العين وأخرى مشابهة، أما أعراض وفاة الجنين، فهي سكون حركته وإحساس بثقل في البطن، كما لو أن به حجرًا يتدحرج من جنب إلى آخر، وأخيرًا إفراز صديدي مُنتن. وعلاماته عند الأم ارتداد العين أو غورها، وظهور كمدٍ في بياضها، وابيضاض الأذنين وطرف الأنف مع حمرة شديدة في الشفة وحالة شبيهة بالاستسقاء.

إن تعلق الجنين بالرحم أشبه بـ«تعلق الثمرة من الشجرة»؛ من ثم يجب علينا أن نحول دون سقوطه، كما نمنع سقوط الثمر. وتعد خطورة الإجهاض أشدّ قبل الشهر الرابع وبعد الشهر السابع، لذلك علينا الاعتناء بالحالة المزاجية للأم وبما قد يصيب الرحم من أمراض موضعية. ويجدر بنا، بوجه خاص، أن نقي الأم من حالات سوء الهضم والإسهال بواسطة حقن قابضة ومدرات للبول وغسول مطهر للفرج.

أما الفصل التالي فيحتوي على وصفات عديدة من المنقوعات القائمة على زيت الخروع، ومن طبيخ الحسك والحلبة وأرياج جالينوس الملينة. وإذا استثنينا الوصفات القديمة في الزمن فإننا نصل إلى الفصل الثاني عشر وعنوانه «تدبير الإسقاط» أي الإجهاض الصناعي. ومن دواعيه عند ابن سينا، صغر سن الأم بحيث «يُخاف عليها من الولادة والهلاك» وأورام الرحم وآفات أخرى لدى النساء البالغات. ولكننا لا نجد لديه أي إشارة إلى عَظْم الحوض. ويوصي ابن سينا لتحقيق الإجهاض بالحركة والوثبات، وبوضع ضمادات فوق البطن، وإيلاج كاغد (فتيل) أو ريشة أو

خشبة مبريّة من الأشنان في فتحة الرحم، وبوسائل أخرى. وتأتي في عقب ذلك إشارات متعددة أخرى إلى ضروب من الأدوية المرة المؤدية إلى الإجهاض، وإلى وصفات من الفرازج العاملة على عودة الدورة الشهرية لدماء الطمث. كما يقدم ابن سينا أيضًا وصفًا لآلة تسمى الزراقة، وهي بمثابة مسبار الرحم الحالي ويصفها على النحو التالي: «يجب أن تكون الزرافة مثلثة الطرف، طويلة العنق بقدر طول قرن الرحم من المرأة المعالجة، وبحيث تدخل في فم الرحم، وتحس المرأة أنها قد صارت في فضاء داخل الرحم، فيزرق فيها ما يقتل، وما يزلق وما يخرج»[٥٤].

يحتوي القسم التالي من هذا الفصل وصفًا لعملية الاستخراج اليدوي للجنين الميت، وهو أقل تفصيلًا من وصف سورانوس (الفصل الخامس والستون)، وهو الوحيد الكامل المتبقي لنا من العصر القديم، ولكنه واضح. لذلك سوف نقدم ترجمة حرفية للنص العربي (ما يوازي ص٥٧٦-٥٧٧ من طبعة بولاق للقانون، الجزء الثاني)[٥٥].

(٥٤) المرجع المذكور: ١٦٥٢.

(٥٥) الموازي لصفحة ١٦٥٢-١٦٥٣ من المرجع المذكور. (المترجم)

الخاتمة

لقد قمنا بمراجعة موسوعة المعارف الخاصة بأمراض النساء والولادة التي ألّفها ابن سينا في حوالي العام الألف من التقويم المسيحي. وتمثل هذه الموسوعة، بصدق وأمانة، مجمل معارف عصره؛ وهي معارف – كما نرى – هائلة. وإذا تبيّنا كل ما يتعرض له طبيب النساء في العالم الإسلامي من عقبات جسيمة لم تختفِ كلية إلا خلال القرن التاسع عشر، فلن نتوانى عن إظهار إعجابنا بما بذله المؤلف العربي – الفارسي من جهد في سبيل جمع هذا القدر الهائل من الملاحظات.

كما يجدر بنا ألا ننسى أن طبيب الحقبة الإسلامية لم تُتَح له إمكاينة تشريح الجثث أو الحيوانات الحية مثل ما كان بمقدور جالينوس في روما، أو فحص النساء عن طريق اللمس أو إجراء عمليات لهن، إذْ كان ذلك موقوفًا على القابلات فقط. بل وكان أقصى ما هو متاح له الملاحظة عن طريق جس البطن وتبين وجود الأورام الكبيرة أو الوضع التقريبي للجنين. لقد لاحظنا أن ابن سينا، مثله في ذلك مثل كل أطباء العصر الإسلامي، قد استعار كثيرًا من معارفه عن اليونان الذين كانوا يتمتعون بقدر أكبر من الحرية في الفحص والممارسة مقارنةً بالعرب الذين كانت تخضع المرأة لديهم، منذ بداية الإسلام، للمحظورات الدينية. ومع ذلك، فلقد شخّص ابن سينا كثيرًا من الظواهر التي لم نقع عليها في مؤلفات اليونانيين التي وصلت إلينا. بل، وزد على ذلك، أنه قد استطاع ملاحظة مجموعة من الحقائق التي لم يطرأ عليها أي تغيير حتى يومنا هذا.

نشير أيضًا إلى حقيقة أخرى جديرة بأن نشيد بها، ألا وهي تحرر ابن سينا من كل خرافات عصره، إذْ لم نجد لديه أي ذكر للتعاويذ أو للإشارات الفلكية والكيميائية التي تغص بها أعمال سابقيه وتابعيه.

ملحق اللوحات

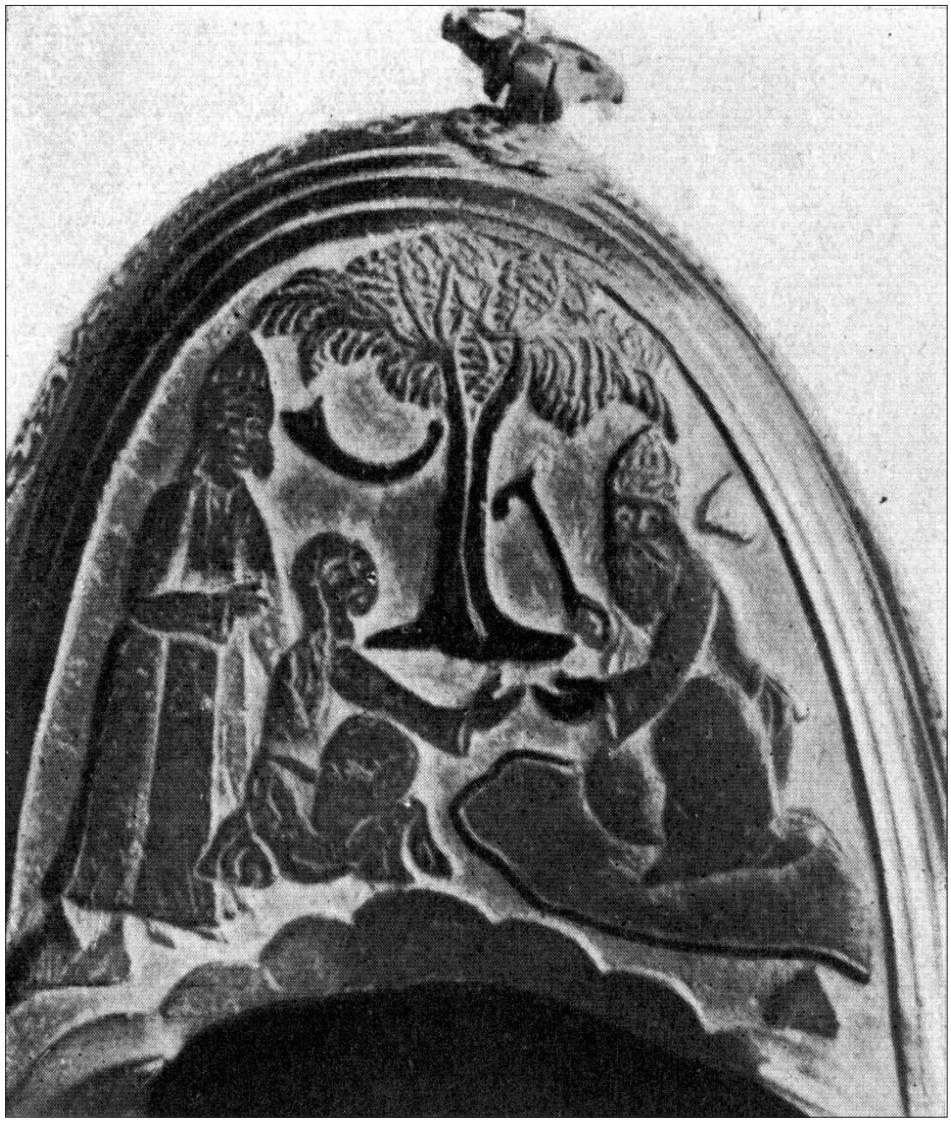

امرأة فارسية تستشير طبيبًا من الدراويش – رسم بارز في كشكول فارسي، مجموعة مايرهوف.

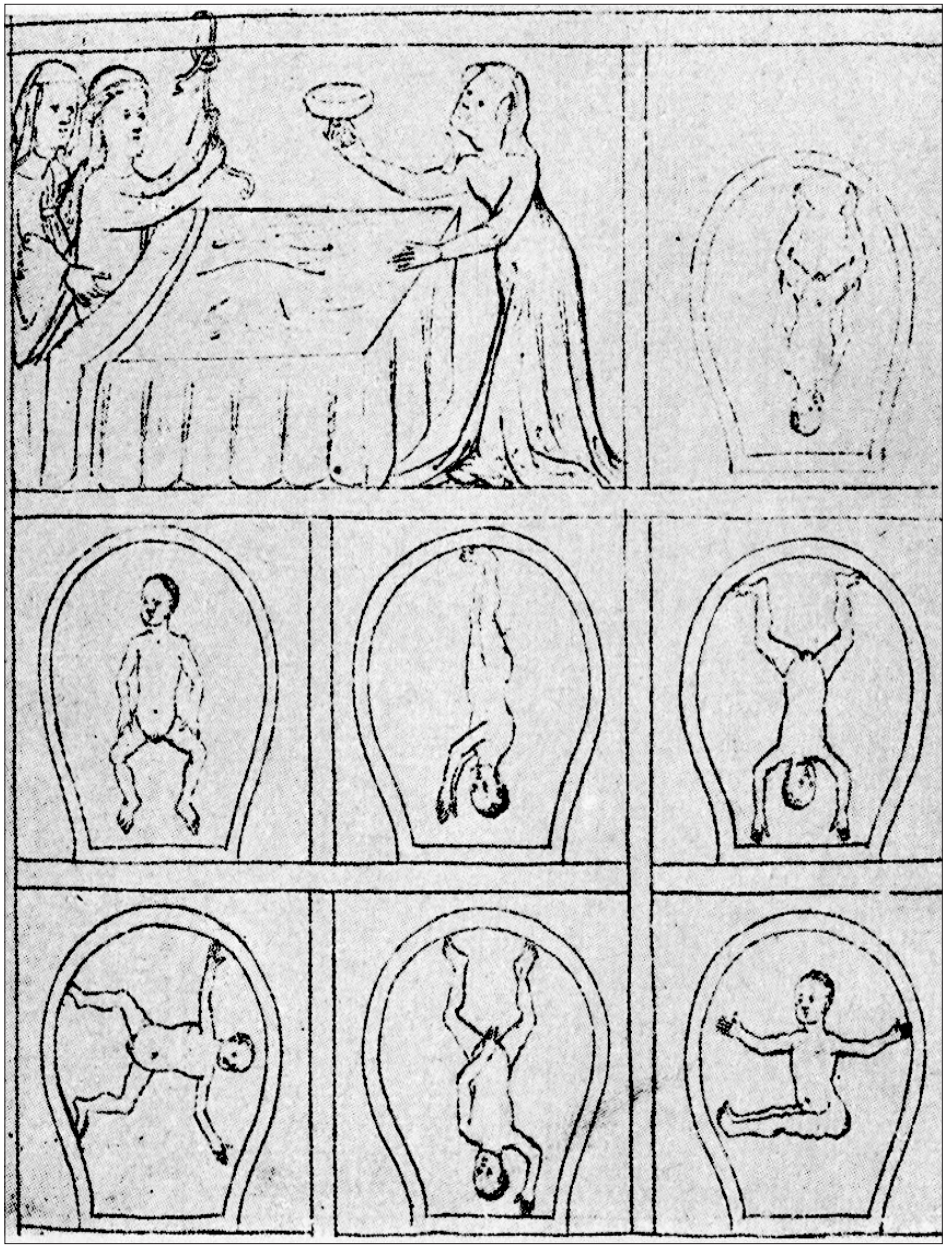

وضع المولود وفقًا لمخطوطة من العصور الوسطى - مخطوطة لوديان رقم ٧٢٤ - المكتبة البودلية بأكسفورد.

ابن سينا يشرح للأطباء تشريح الجهاز العصبي – منمنمة من كتاب التشريح المنصوري، مخطوطة فارسية من القرن السابع عشر، مجموعة مايرهوف.

مشهد للولادة – منمنمة فارسية على مرآة، مجموعة متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، مهداة من جلالة الملك فؤاد الأول للمتحف.

المصطلحات الطبية وترجمتها

دُمل	Abcès
دُمل بمحيط الرحم	Abcès paramétritique
النفساء	Accouchée
عسر الولادة	Accouchement difficile
شبه اللفائفي	Allantoide
احتباس الطمث	Amenorrhea
السلي - الرهل	Amnios
شهوة الحوامل	Appétit des gravides
الشريان الحرقفي	Artère iliaque
الشريان السُّري	Artère ombilicale
انسداد فتحة الرحم	Atrésie
إجهاض - إسقاط	Avortement
قرقرة	Borborygmes
ثقب بوتال	Botal
سرطان	Cancer
كرسي الولادة	Chaise obstétricale
المشيمة - السلاء	Chorion
الحمل - الحبل	Conception
لقموم (ورم) حُليمي	Condylome papillaire
الحاوي في الطب	Continens Medicinae
حبال المنيّ	Cordons spermatiques
أجسام مسمارية	Corps pédiculés

مجموعة إبقراط	Corpus Hippocraticum
تآكل	Corrosion
زوائد	Cotylédons
مفتت الجمجمة	Cranioclaste
ثقب الجمجمة	Craniotrippie
صنّارات	Crochets
سقطة	Culbute
في تناسل الحيوان	De generatione animalium
في المنيّ	De Semine
في فن ممارسة التوليد	De usu partium
انحراف – ميل	Déviation
تشخيص	Diagnostic
آلام، أوجاع الرحم	Douleurs utérines
عسر الطمث	Dysménorrée
سيلان	Écoulement
تفتيت، تقطيع الجنين	Embryotomie
صرع	Épilepsie
مرض الحُمرة	Erysipèle
بتر	Excision
استخراج بالكُلّاب	Extraction au forceps
الرحا – الحمل الكاذب	Fausse gravidité
حُمى النفاس	Fièvre puerpérale
ناسور الرحم	Fistule de l’utérus
ناسور المثانة والرحم	Fistule vésico-utérine/vaginale

انتفاخ	Flatulence
سيلان	Fluor
استسقاء الرأس	Hydrocéphalie
كلابات – جفت	Forceps
الأكالة – غنفرينا	Gangrène
سيلان	Gonorrhée
حمل – حبل	Gravidité
انسداد الرحم	Gynatrésie
هيئة – مظهر – شكل	Habitus
نزف	Hémorragie
بواسير الرحم	Hémorragie utérine
قياس ثقل السوائل	Hydrométra
استسقاء	Hydropisie
غشاء البكارة	Hymen
اختناق الرحم – هستريا	Hystérie
غشاء شبكي	Membrane réticulaire
غزارة الحيض	Ménorragie
التهاب الرحم	Métrite
ارتحال الرحم	Migration de la matrice
المولى	Mola
شبق المرأة – إفريسيموس النساء	Nymphomanie
دمل بالقدم	Œdème des pieds
قلة الطمث	Oligoménorrhée
المبايض	Ovaires

بوق الرحم	Oviducte
خفقان القلب	Palpitations cardiaques
أورام حُليمية	Papillomes
بردية بروش الطبية	Papyrus médical de Brugsch
التهابات حول الرحم	Paramétrites
عجان	Périnée
التهاب الصفاق	Péritonite
الفَرْزَجَة	Pessaires
مشيمة	Placenta
تنفس – هوائي	Pneumatique
نفخة الرحم، رياح	Pneumatose utérine
سائل الرحم (سليلة)	Polypes de l’utérus
أورام مسمارية – ذات سويق	Polypes pédiculés
اختناق الرحم	Praefocatio matricis
حمولة – لبوس	Priapiscus
قسوح – إفريسيموس	Priapisme
تدلّي	Procidence
تدلّي	Prolapsus
حكة الفرج	Prurit vulvaire
بثور	Pustules
التدبير الملكي	Regalis disposition
تدبير المرأة المفتضة	Régime de la femme déflorée
غشاء المشيمة	Secondines (placenta)
مرآة طبية	Spéculum

عقم	Stérilité
اختناق الرحم	Suffocation matrice
الإخصاب المتعدد	Superfécondation
الإخصاب المتعدد	Superfétation
اندحاس - انضغاط القلب	Tamponnade
الخصية	Testicule
ترياق مثروذيطوس	Thériaque de Mithridate
ورم طبلي	Tympanisme
قروح	Ulcérations
مهبل	Vagin
أوعية المنيّ	Vaisseaux spermatiques
عروق السُّرة	Veines ombilicales
النفخة	Ventosité
برّوقة - زائدة لحمية	Verrue
ميلان، انقلاب الجنين	Version du fœtus
فرج	Vulve

المصطلحات اليونانية والشرقية

أكالة - غنفرينا	Akla
اللفائفي	Allantois
السلي	Amnios
السلي الرهل	Anfos
رباط، شريط للتعصيب	’asâbât

عنق الرحم	Awkhên (aixήv)
باذروجين	Bâdh-doroughîn
باسور	Bâsour
بيضة (مبيض)	Bayda
الشيخ الرئيس	Chaikb Wa-Raîs
تشقق – تمزقات	Chiqâq
نبات الشيرخشت	Chir-khouchl
الدحمرتا (سريانية)	Dahmorta
ذكر	Dhakar
جوارشن	Djawâtich
دُبَيْلة (ورم بمحيط الرحم)	Do beūla
فن (قسم)	Jann
فرج	Fardj
فرزجات	Forzadjât
كيس لفائفي يسيل به بول الجنين	Filas
في الرحا	Fi´r-raba
إفريسموس	Frîsîmous
طب النساء	Gynaikeia
حاشا (سعتر)	Hâchâ
حمل	Hame
حبوب فيكرا	Hiéra picra
اختناق الرحم	Hystérikî pnix

اختناق الرحم	Khtinag ar-reham
انغلاق – انسداد	Inghilâq
انقلاب	Inqilâdj
الكظ	Kaff
كلاليب	Kalâlîb
الكليتان	Kalbatân
كاتياس – مبضع	Katias
القرقس	Kerkos
كتاب الشفاء	Kitâb-al-Chifâ
الكتاب الملكي	Kitâb al-Malaki
الكتاب المنصوري	Kitâb al-Mansouri
الكتف	Kitf
لولب	Lawlab
التهاب الصلبة	Logadia
فن الولادة	Maiotikón
مقالة	Maqâla
مأزق	Mâ´zim
مبضع	Mibda’
مرآة	Mirârat
مولى	Mylé
المستفرغ	Al-mustafrigh